١٠٣٨
دار م. النحاس

روايات عبير

سلسلة قصص و
1038
HARLEQUIN ®

الرغبة والتمنع

جيني كارترايت

منتديات ليلاس
نور

الرغبة والتمنع

جيني كارترايت

منتديات ليلاس

«قف!» صرخت ليزي، وخرجت الكلمة مكتومة لشدة قربه منها

تال إدي وقد تأجج صوته بالعاطفة: «ماذا جرى؟ أنت تحبينني بمقدار ما أحبك.»

قالت مرتجفة: «لا... أنت على خطأ.»

تمتم بصوت منخفض، معترضاً: «أنا لست على خطأ. فللحظة خلت، قلت لي ذلك بلسانك وبجسدك... وبطريقة أو أخرى، كنت تشيرين إلى حبك لي منذ وصولك.»

نور

الرغبة والتمنع

جيني كارترايت

«أنت لا ترغب الزواج مني، أليس كذلك؟»

كانت ليزي بريثويت دائماً، تتصرف أولاً ثم تفكر بالنتائج لاحقاً. حملتها نزوتها الأخيرة إلى فرنسا، وإلى أن تطلب الزواج من رجل غريب عنها كلياً! لم يكتفِ إدي هولت برفض طلبها، بل أعلن أيضاً ملكيته للبيت الذي كانت تعتقد أنه لها. هذا الرجل الذي لا تقاوم جاذبيته، والذي كان يسامرها باستمرار، أصبح هاجساً أكبر مما تستطيع ليزي معالجته. ولكن، عندما بدا أن الزواج هو الحل الوحيد لخلافاتهما، اضطرت لتذكير نفسها بشدة، أنها أتت إلى فرنسا من أجل العمل... لا للوقوع في الحب.

liilas.com/vb3
نور

«قف!» صرخت ليزي، وخرجت الكلمة مكتومة لشدة قربه منها

قال إدي وقد تأجج صوته بالعاطفة: «ماذا جرى؟ أنت تحبينني بمقدار ما أحبك.»

قالت مرتجفة: «لا... أنت على خطأ.»

تمتم بصوت منخفض، معترضاً: «أنا لست على خطأ، فللحظة خلت، قلت لي ذلك بلسانك وبجسدك... وبطريقة أو أخرى، كنت تشيرين إلى حبك لي منذ وصولك.»

جيني كارترايت

ولدت جيني كارترايت وترعرت في ويلز. أمضت ثلاث سنوات في جامعة كنت وسنة في أميركا، ثم عادت إلى ويلز، حيث تقيم وتعمل حتى الوقت الحاضر. سعيدة بزواجها وبأولادها الثلاثة... بنت وصبيان... أخذت بإشباع رغبتها، التي لازمتها طوال حياتها، بالكتابة. وما يزال توأماها صغيرين. تتناقض الخلوة الهادئة التي تتمتع بها خلال تأليف رواياتها، مع ضجيج حياتها العائلية.

١٠٣٨

روايات عبير

Riwayat Abir 1038

الرغبة والتمنع

جيني كارترايت

دار
مؤسسة النحاس
للطبع والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

liilas.com/vb3
نور

الفصل الأول

توقفت عربة الڤان المزرية، فداست ليزي بشدة على الفرامل، فيما جذبت المكبح بكل قوتها. ثقتها بتلك العربة كانت شبه معدومة، وقد سمعتها تئن مُذْ تركت الطريق الرئيسية، سالكة درباً فرعية وعرة. أبقت قدمها مثبتة على الفرامل، لثقتها بانها متى خففت من ضغطها، تنزلق بها العربة نحو حافة المنعطف؛ وستتعرض لدى عودتها، لعبارات الشماتة والتشفي، على غرار: «أما قلت لك؟» الأمر الذي، كدراً ولد في قلبها، أشد من اضطرارها للسفر المفاجيء بسبب الإرث.

حاولت إدارة المحرك، فأصدر أنيناً خافتاً، وكأنه أصر على عدم التجاوب؛ وكانت كل محاولة منها، يقابلها تعنت مغيظ من المحرك. «هيا، أيتها العربة اللعينة!» قالت من بين أسنانها. «انطلقي، تباً لك!»

حدقت بالمؤشرات التي أمامها، فخيل إليها، أن مؤشر السرعة يحدجها بنظرات مشاكسة، من الواضح أن محرك العربة كان مرهقاً من هذه الرحلة تماماً مثلما كانت هي. يومان من القيادة المتواصلة، ناهيك عن ليلة قضتها في مؤخرة العربة، كل هذا كان كفيلاً بإصابة ليزي بالإرهاق. ابتاعت العربة لأيام خلت وهي بحال حسنة، وها هي ذي اليوم في النزاع الأخير.

كان الحر داخل العربة خانقاً، على الرغم من أن النوافذ

كانت مفتوحة. انزلقت نظارتها فوق أنفها المنمش للمرة العاشرة، فرفعت يداً عن المقود وأعادت النظارة إلى مكانها بحركة تنم عن تعبها. ثم أطلت عبر النافذة، فداعبت شعرها نسمة عابرة، ولكنها تركت وجهها على سخونته البالغة.

راحت تتأمل جبال فرنسا الجنوبية الممتدة في الأفق، وقد صادف وجودها وسط قرية نائية، تسرح فيها قطعان الماشية. أحست بالألم في قدمها، لفرط ضغطها المتواصل على الفرامل، والتصقت قميصها القطنية بجسدها. ما نفع بطاقة العضوية الفخرية التي بحوزتها في هذه البقعة النائية؟ والأسوأ من ذلك تسليمها بأنها عاجزة عن التصرف، فبمجرد أن ترفع قدمها عن الفرامل، سيكون مصيرها الهلاك الأكيد. هي تعلم أنها من النوع الاتكالي، وستصاب بالارتباك في المواقف الحرجة. أدارت المفتاح مجدداً. لا أمل.

عادت نظارتها فانزلقت مجدداً، فما كان منها إلاّ أن ثبتتها بغضب فوق شعرها الأحمر، ثم شرعت تمسح قطرات العرق المتصببة فوق جبينها. كانت لتهوى في أية لحظة من جراء الحرارة المرتفعة. قدمها ظلت مسمرة أرضاً و...

«صباح الخير، آنستي، أتحتاجين لمساعدة؟»

تساءلت كيف ظهر؟ وهو لم يكن موجوداً للحظة مضت. اختلست نظرة إلى قدميه، كان ينتعل حذاءً رياضياً، فرنسي الصنع، يصلح للتجوال بخفة وصمت. ومن ذا الذي يكترث لمصدر قدومه؟ إنه هنا، أشبه بفارس يمتطي جواداً أبيض، وهذا ما يهمها.

«حسناً... أجل، شكراً يا سيدي، من فضلك...» أجابت

بلكنة فرنسية ركيكة بينما راحت تمعن النظر في الرجل الذي ظهر فجأة من العدم. كان فرنسي الملامح، ذا أنف طويل، وابتسامة ساخرة، كعادة الرجال من بني جنسه. كانت بشرته برونزية لوحتها الشمس. أزاحت عينيها عن خصلاته الداكنة المجعدة، وجاهدت كي تحتفظ بنظرها مثبتاً فوق عضلاته. كان صلباً، لدرجة تمكنه من دفع العربة باتجاه الطريق العام، ولكونه في منتصف الثلاثينات، لم يقلقها أمر نيل الاجهاد منه. هذا مناسب تماماً.

قالت: «السيارة... حسناً... إنها... معطلة.»

ضحك وقد بدت أسنانه الناصعة البياض. ثم راح ينقل عينيه الرماديتين بين الزوايا. وكانت هي قد بدأت تسترد نشاطها.

قال: «وقود. اشم رائحة وقود.»

«الوقود. أجل يمكنك...» كيف يقال يشم بالفرنسية؟ «يمكنك أن تشم رائحة الوقود...»

«لِمَ تترجمين كلماتي إلى الفرنسية؟»

حدقت به ورفت أهدابها بغباء. «حسناً ـ ليتسنى لك فهمها...» أجابته، وقد توصلت أخيراً إلى فهم مأربه. لا بد أنها مرهقة أكثر مما تظن! التقت عيناهما. غرقا في موجة من الضحك العارم.

كفت ليزي عن الضحك، إذ راح الألم في قدمها يشتد. قالت له: «أنظر. ظلت قدمي مسمرة إلى الأرض لساعات طوال. أظنني سأصاب بتشنج عضلي في أية لحظة.»

أجاب بجفاء «سبع دقائق.»

«سبع دقائق. ترجمتها سهلة، ولكنني لم أفقه معناها.»

liilas.com

«معناها أنك تجلسين ههنا منذ سبع دقائق فحسب. راقبتك من الحديقة. حددت لك الوقت.»

إنه يقيم هنا إذن. لعله أحد الجيران. إنه يتحدث الانكليزية بطلاقة. لا حاجة إلى وجود من يعينها على الترجمة.

«ما زلت أشم رائحة الوقود. لا بد أنك أغرقت المحرك وقوداً بمحاولتك إدارته. إنجاز متقن في هذا الحر.»

يا لانكليزيته الفصيحة، تشوبها لكنة خفيفة. «وما معنى ذلك؟»

«معناه عليك بدفع الدواسة إلى الأرض...» ومضى يلقي بتوجيهاته حول إدارة المحرك. توجيهات أدت إلى نتيجة ملموسة!

انطلقت ببطء، على سبيل التجربة، ثم توقفت لتخرج رأسها من النافذة وتشكره.

«في أي وقت.» تمتم وقد راحت عيناه تومضان بغموض ثم أردف «لا بأس بتلك الانطلاقة. المكبح بحال حسنة. ما الذي جعلك تظنين خلاف ذلك؟»

أشارت إلى مؤشر السرعة. وأخذت تحدثه عن الاشارات التي كان يسجلها أمامها، ثم عادت ففكرت بما هو أفضل. «أنا ـ لم أكن لاثق به...» تمتمت. قد يظن أن معلوماتها الميكانيكية بدائية ـ وهذا واقع الأمر ـ ولكنه، على الأقل، لن يحسبها مجنونة. تساءلت، ولم هذا الاهتمام بما قد يظنه بها.

سألها بجفاء: «لِمَ لَمْ تقومي بإصلاحه إذاً لما ارتدت الاطارات إلى الخلف؟»

تأوهت، وابتسمت معتذرة. لو خطر لها أن تسير بحثاً عن عون ما، بدل الجلوس هكذا، بانتظار المساعدة. الاعتماد على الفرسان الفرنسيين فوق جيادهم البيضاء لهو أمر عظيم، وخاصة متى فقدنا الاختيار. ولكنها أبت أن تبدو أمامه بمظهر العاجز.

«أتعرف منزلاً في الجوار يدعى مون آبري؟» سألته لتخفي ارتباكها.

«مون آبري؟ طبعاً. إنه إلى الأمام، وراء المنعطف بمسافة أقل من مائتي ياردة...» قال باقتضاب ثم أضاف ساخراً: «أقل من مائتي متر...»

«جيد!» هتفت، وقد وجدت أخيراً ضالتها. باتت على قاب قوسين من المكان! ضغطت قدمها على دواسة الوقود بقوة، لتتفادى توقفها مجدداً. قال لها كلاماً، لم تتمكن من سماعه. تلفتت صوبه، ثم حيته شاكرة.

هز كتفيه، ثم حياها باقتضاب ومضى في سبيله. راحت تتأمله إلى أن توارى. بنطاله الجينز المتناسق، قميصه البولو البيضاء ـ من النوع الجيد ـ حذاؤه الرياضي الأزرق، كان جذاباً بشكل مثير، ومن النوع الأوروبي المميز.

فركت أنفها وقد راعها أن ترافقه أفكارها في ذهابه. لقد حضرت لتعمل. هذا كل شيء. كانت قد عاهدت نفسها على عدم الإنصراف إلى اللهو.

عزمت على عدم اقامة علاقة عاطفية، مهما كانت الظروف. أسدلت ليزي الستار على تجاربها العاطفية منذ ما يقارب الثلاث سنوات، عندما خذلها الشاب الذي حاولت التعلق به، وكانت حجته أنها تثير الجنون. ناهيك عن

liilas.com/vb3 نور

الكلام الذي تفوه به صديقها الأول في مناسبة مماثلة.

آنا، صديقتها الحميمة وشريكتها في الغرفة إبان الدراسة، أخبرتها بأن السر يكمن في حظها العاثر، وعليها ألا تدع التجارب تنغص عيشها.

أجابتها موضحة: «أنت لا تدركين، يا آنا.. إنني لست محطمة الفؤاد ولا أشعر بمرارة. إنني واقعية وحسب. أخشى انني، حسناً، لا أعلم... ربما فظة ومتشددة، مما يصعب معه أن أكون زوجة صالحة.»

«هراء. أنت ألطف انسانة عرفتها.» ثم أضافت آنا بحرارة. «أراهن على وجود من يترقبك بفارغ الصبر، ويتوق جداً لأن تشاركيه بقية العمر!»

ضحكت ليزي، علماً أن الملاحظة الآنفة حملت الكثير من معاني الرخاء. تكمن المشكلة في أنها ترفض أن يمضي عمرها وهي تصدر الأوامر لرجل ما مهما يكن جذاباً ووسيماً. صممت أن تمضي من دون رجال، وهي واثقة من أنه القرار الحكيم. كانت تحب حياتها، عملها، وعلى الأرجح لم تكن تطمح للمزيد.

قامت باصلاح المحرك، وانطلقت بحثاً عن مون آبري. البوابة بيضاء لامعة ـ هذا ما تذكره. المنزل أيضاً، وهو ما بدا لها عبر البوابة، كان حديث الطلاء وفي حالة حسنة. من الواضح، أن جان كلود، وماري، أوليا المنزل عناية خاصة عملاً بوصية الجدة. هذه الأخيرة كانت ترسل لهما مبلغاً شهرياً، ولكنه حتماً لا يكفي لابقاء المنزل بهذه الحال. من واجبها أن تعوض عليهما ما أن تبدأ بجني المال.

غمر قلبها الفخر. بيتها! يصعب التصديق أنه الآن منزلها.

lilas.com/vb3

غمرتها موجة عارمة من الحبور وصلت إلى منزلها، أخيراً.

استغرقت بضع دقائق لتفتح البوابة، ودلفت إلى الفناء المواجه للبيت، ثم عادت لتقفل البوابة. وبعودتها إلى العربة، أيقنت أن المدخل قد غطي بالحصى حديثاً. اكتست الحديقة بورود يانعة، وبدت جلية، درف النوافذ الخضراء الحديثة الصنع، تحت سطح القرميد الموضوع حديثاً. أخذت على عاتقها دفع المبلغ الشهري، للثنائي الذي يشرف على شؤون المنزل مذ ورثت الدار. من المؤكد، أن المبلغ الزهيد لا يكفي لسد النفقات تلك! توقعت أن يكون المكان شبه مهجور. ما الذي يجري؟

ساورتها الظنون. راحت تفتش حقيبتها بحثاً عن مفتاح الباب الرئيسي. دار بليونة. دفعت الباب باحتراز. لتلف والتوتر يجتاحها. من يراها قد يحسبها دخيلة، وليست صاحبة الدار! استردت شجاعتها، وخطت بخفة متفحصة المكان. لم تتبدل الغرفة الجميلة ذات الهواء الطلق. ولكن الأرض، ببلاطها المقلم اللامع، والسجاد الزاهي الألوان، الأرائك الضخمة، كلها كانت حديثة. وقد لفت نظرها وجود كتاب مقلوب فوق إحداها.

«أحدهم.» قالت بجرأة، في محاولة لاخفاء ثقتها الواهنة بالحياة. «قد التهم زادي.»

قال صوت عميق صادر من الرواق: «ظننت أن غولديلوكس كانت شقراء.»

تسارعت دقات قلبها. استدارت. كان هو.، وقد اتكأ إلى حافة الباب، وكأنه سيد المكان. نور الشمس الوهاج وراؤه أغرق وجهه بالظل مما حجب عنها تعابير محياه.

قالت بصوت جاف: «أوه... أنا، الآمر هنا، إنه بيتي. إنما يبدو أن أحدهم يقيم هنا.»

«أجل.» وافقها، برنة مرحة.

غصت قائلة: «أظنك هو؟»

«أجل...» وافقها أيضاً. ثمة شيء غريب في صوته. إنه يتصرف على أنه صاحب الدار، ولا يبدو عليه القلق لسماعه أقوالها.

أقلقها الأمر. مهما تكن أسباب وجوده ـ ويبدو من خلال ما عاينته من تجدد في أثاث المنزل، أنه مقيم منذ فترة غير قصيرة ـ عليه أن يعلم أنه لا يحق له البتة ملازمة المكان. لا حق اطلاقاً، راحت تذكر نفسها.

إستردت رباطة جأشها وخطت نحوه عدة خطوات. «دعني أقدم نفسي. أدعى ليزي بريثويت.»

لم تتمكن من تفادي نبرة السخرية التي تسلل إلى صوتها كلما ذكرت إسمها عالياً. كان في صوتها نوع من الادعاء العبثي. مسحة من الجفاء تخللت كلماتها، تمنت لو أنها عاقبت نفسها عليها.

تابعت، وقد أصبح صوتها أكثر حزماً فيما نجحت عيناها في اجتذاب نظره البليد: «أظن أنني سيدتك الجديدة إذن.»

بقيت عيناه ثابتتين، وقد تابعتا التفرس بعينيها بتهكم طغى على لونهما الرمادي، وكأنهما يتشاركان دعابة طريفة. أشاحت بوجهها عنه.

«سررت بمعرفتك، آنسة بريثويت.» أجاب أخيراً، مقلداً نبرتها الساخرة. خطا نحوها وأطبق على يدها اليمنى

بكلتي يديه. بدت بشرتها الندية شفافة، وقد أطبقت عليها يداه الملوحتان. تركزت عيناها، فوق الشعيرات السوداء الملساء، المنتشرة على ساعديه.

«أيمكنني مناداتك ليزي؟»

كانت يدها محتجزة بين يديه. أحست بلمسته الجافة، وقد أدركت فجأة مدى رطوبة وحرارة يدها التي أرادت سحبها، ولكنه كان ممسكاً بها بقوة. حاولت جاهدة إخفاء هزيمتها.

«كما تشاء.» قالت بنبرة رضوخ. «وماذا أناديك، سيد...؟»

«إدي هولت» قال بايجاز. «لست فرنسياً. إنني إنكليزي بقدر الخبز المحمص والمربى.»

«ولكن لك ذراعين فرنسيتين!» أفلتت الكلمات من بين شفتيها دون تفكير. حررت يدها ووضعتها فوق فمها. يا له من قول سخيف.

أطبق على شفته السفلى بين أسنانه، بينما راح طرفا فمه يتحركان بشكل مثير. ثم أمال رأسه، تفحص ذراعيه وهز كتفه برفق. «لا بد أنه الثوم...»

صدرت عنها تنهيدة أودعتها كل غيظها. «إصغ، هلا عدنا إلى موضوع المنزل؟»

رمقها بنظرة ساخرة، وقد عقد أصابعه وراء عنقه. «حسناً.» تنهد وكأن الأمر غير مهم. «دعيني أحضر زجاجة شراب من الثلاجة، ثم نجلس في الحديقة ليتسنى لك التفسير...؟ آه، أجل... سيدتي.»

فقالت بريبة: «شراب؟»

liilas.com/vb3 نور

«أجل أنت في فرنسا، كما تعلمين.»

«ولكنها الرابعة بعد الظهر.»

قال بفتور: «لسنا في انكلترا. لا وجود للتزمت في هذه الجهة من القناة، (المانش) وأضاف متوجهاً نحو المطبخ. «فلتحيا المفارقة...»

راحت تراقب ظهره بعينين متعبتين. لا بد أنه استأجر المنزل من جان كلود وماري. يا لها من وقاحة، إنما يشوبها الغموض. وقد استمزجا رأي الجدة في الأمر، بلا ريب. مهما يكن، إن كانت قيمة الايجار كافية للقيام بتلك التحسينات، فلن يسعها الاعتراض! يعتقد إدي هولت أن عقد الايجار الذي لديه مضمون جداً...

الشراب يخلق مناخاً مريحاً، فكرة حسنة. على أية حال، هو يجهل أمر ملكية مون آبري. وإن كانت ستضطر إلى طرده، فينبغي أن تفعل ذلك بلباقة. صفة بعيدة عنها بعض الشيء سلمت بذلك مرسلة زفرة حارة.

قالت: «حلقي جاف. هلا أحضرت كوباً من الماء، إذا سمحت؟»

قادها خارجاً عبر الأبواب الفرنسية إلى الردهة الوارفة تحت الشرفة، حيث وضعت طاولة صغيرة ومقاعد خيزران. أدركت، حتى قبل استرخائها في الظل مدى الجهد الذي بذلته لتحتفظ بتماسكها. أحست بتكاسل وقد ضمتها الكرسي. أحست فجأة بالارهاق. لقد مرَّ عليها يومان شاقان. كانت الماء المثلجة مصدر انتعاش لها، جعلتها تسترد مزاجها. سال لعابها لرؤية العناقيد الخضراء القاتمة، والخبز والجبن التي جلبها مع الشراب.

سألها، وعيناه تراقبانها من خلال كأسه: «أنت، إذن، المالكة الجديدة؟»

هزت رأسها بحذر. «أخشى ذلك. توفيت جدتي منذ سبعة أسابيع. هذا منزلها، وقد ورثته عملاً بوصيتها.»

«أوه...» أجاب، وهز رأسه مفكراً: «اجراءات تنفيذ الوصية وما شابه لا يعقل أنها أنجزت بهذه السرعة؟»

هزت رأسها بشدة، فيما راح شعرها المعقوص يتأرجح في الإتجاهين. رفعت يدها لتطلق العنان لشعرها الأحمر. «لا.» قالت وقد تركت شعرها ينسدل فوق كتفيها. «أصغ، أعلم أنني استعجلت القدوم قليلاً. ولكن الوصية تحتاج لوقت طويل لتصبح سارية المفعول. وكنت أتلهف للحضور لأبدأ أعمالي. إنني واثقة من أنه بوسعنا إيجاد مخرج ما.»

«أولم يخطرك المحامي...؟»

«لعله فعل!» فقاطعته: لقد راعها رؤية قلة إكتراثه لحضورها. إنها ترى أن في هذا الوضع شيئاً غير طبيعي لا بد وأنه يعاني مثلها.

«إصغ يا سيد... إدي...» وإن كان يناديها ليزي، أرادت أن تضع الأمور في نصابها. لقد بدا مسيطراً على زمام الأمور، بمجرد وضعه الطعام فوق المائدة. «إنه منزلي الآن. لي الحق أن أقيم فيه وأعمل. لو كنت أعلم أنك هنا، طبعاً كان الأمر سيختلف. ولكن لم تكن لدي أدنى فكرة.»

هز رأسه قائلاً: «إنك إذن أخطرت بالتريث؟»

«أخطرت بالتريث؟ كل الذين التقيتهم نصحوني بذلك! أشاروا علي ببيع المكان في الوقت المناسب. ورحت

أجاهد في انتظار اليوم الذي سأباشر فيه أعمالي دون حاجة لإزعاجهم.

تابعت رافعة رأسها. «إنما ما كانوا ليخبروني. ولا حاجة بك لأن تفعل أيضاً، لأنك ستهدر وقتك. لست في وارد تلقي النصائح.»

ضحك، ضحكة مبتورة هذه المرة. «ومع ذلك، فقد تسرعت يا ليزي. لو أنك تمهلت قليلاً لكنت حتماً أدركت بأن الأمور ليست بالسهولة التي ظننتها.»

بادرته بتهكم: «لو أنني انتظرت أن يسوي المحامي الأمور، لكنت تحادث الآن امرأة في منتصف العمر! جدتي كانت.... امرأة خارقة. ما كانت لتثق بالمحامي والمصارف وكل ما شابه. وضعت وصيتها بنفسها. يقول المحامون إنها أجادت بوضعها، ولكن يلزمها وقت طويل لتصبح سارية المفعول. خشيت أن يطول انتظاري، ووجدت أن لا ضرر من مجيئي...»

حدق بها صامتاً، بعينيه الرماديتين، ما خطبه؟ كلما أفاضت بالحديث، تضاءل اهتمامه. كان يجلس مفكراً، وبدت إمارات الجدية فوق ملامحه.

«لا تقلق.» قالت بحزم، وقد أدركت بارتياح سبب رصانته. «لن أطردك من دون إنذار مسبق! آسفة. كان ينبغي أن أوضح الأمور من البداية. ولكنني واثقة من إمكانية التوصل لاتفاق ما. جان كلود، وماري كانا... حسناً... فلنقل إنهما إقترفا خطأ ما، عندما أجّراك المنزل.»

«جان كلود؟» سألها، وقد كست عينيه مسحة مكر مفاجئة.

«كانت جدتي ترسل له ولزوجته مبلغاً من المال للمحافظة على الدار. توقعت أنهما...»

«لقد ترمل جان كلود منذ عدة سنوات. أخشى أنه لم يعد كما كان قبل وفاة زوجته.» بدا مستهجناً للغاية.

«ليزي.» أردف، وقد تعمد النظر إليها: «يبدو أن الأمور أكثر تعقيداً مما تظنين. أخشى ألاّ تكوني قادرة على الإقامة هنا.»

انتظرت كي يكمل حديثه. من الطبيعي أن يدافع عن حقه في الإقامة في المنزل. ولكنها لن تسمح لنفسها بالتساهل معه. لقد وصلت، أخيراً. وهذا أهم ما في الأمر. بوسعها إقامة مشغل الخزف في الفناء الخارجي في الخلف، كما خططت؛ وقد تمضي هناك أشهر الصيف طالما هو يقيم هنا. بمقدورها جعله مريحاً... ما يعنيها في الأمر هو سير أعمالها، وهي لا تعطي أهمية تذكر للتفاصيل الأخرى. بالإضافة إلى أن الدار بحالة ممتازة، وهذا بحد ذاته مكسب إضافي... كانت مصممة على الإقامة فيه وهي تعلم حالته، ولا يسعها الآن التذمر، وقد وجدته بهذه الفخامة. رفعت إلى فمها عنقوداً من العنب.

قال معلقاً وهو يعتدل في جلسته: «هذه العناقيد تحمل لون عينيك! مع أن لعينيك خطاً داكناً يحيط بحدقتيك...»

أصيبت بالذهول، عندما أدركت محاولته تبديل الموضوع. وهو، برأيها، أمر مبهم. كانت تجهل كم مضى على استئجاره المنزل، وفكرت بأنها فترة غير قصيرة. ألم يلمح لشيء ما عندما ذكر كلمة «حديقتي» بلياقة؟ كان يتصرف على أنه صاحب المكان. بدا، ورغم هدوئه الظاهر،

liilas.com/vb3
نور

أنه كان يعاني صراعاً مريراً، بمواجهة التطورات الأخيرة. عضت شفتها السفلى، وقد شغلتها فكرة إفهامه الأمر.

قالت معتذرة: «لا حاجة بك لمداهنتي لن أقوم بطردك كما ذكرت، أو على الأقل...»

«ليزي، أنا لست مستأجراً. أنا أملك مون آبري.»

«مستحيل! إنه ملكي. بالأحرى سيصبح كذلك متى جهزت الوصية.» تكلمت بعجلة، ثم توقفت عندما أصابت كلماتها مرامها. لا يملك المكان حتماً، ولكنه يتحدث وكأنه مالكه الشرعي. لا! يا له من أمر شائك! من الواضح أنه يأمل، ربما، بالحصول على آلاف الفرنكات، وعليها هي أن تفهمه ذلك.

أضافت برقة: «أخشى ألا يكون جان كلود هو البائع. لا بد وأنها صدمة عنيفة لك...»

«لم يكن جان كلود من باعني إياه، ليزي، بل رجل انكليزي يدعى جيمس كولبي.»

«جدي!» هتفت ليزي. أصابها كلامه كصاعقة مدوية. جف حلقها فجأة. وغرقت في الحيرة.

«نعم، ولو فرضنا أنك حفيدة جيمس وهستر كولبي.»

قالت بوهن: «ولكن جدي قد توفي.»

«يؤسفني ذلك. أقر بأنني أعجبت باليسير الذي بدر منه.»

«لا يعقل أنه قد باعك المنزل! إنه توفي منذ عام وأكثر، وعلى أي حال، جدتي هي صاحبة الشأن. وقد تركته لي.»

«آسف، يا ليزي، ولكن جدك كان على قيد الحياة، عندما اشتريت منه مون آبري. حدث ذلك منذ عامين، وفي ظروف خاصة بعض الشيء. أؤكد لك أن الأوراق التي أعطانيها كانت باسمه. ولم يؤت على ذكر زوجته فيها.»

فهتفت بريبة: «تقصد... آه، هذه سخافة. لا أصدق هذا! احتقن وجهها، واضطرت أن تبتلع ريقها حتى لا تخنقها الكلمات. «تقصد أن تقول.» أردفت: «إنك أنت مالك المكان؟»

«في الواقع يمكنني...»

لم تعد تصغي. أصابها الجمود، وراحت عيناها تسجلان تحركات شفتيه.

«إصغ إلي.» قالت بضراوة، وقد عادت الحياة إلى تفكيرها. «هذا جنون مطبق. إنه بيتي. وقد ورثته. جدتي أرادت ذلك. كان لها في البدء وانتقل إلي. كنت أحبها، وهي أيضاً كانت تحبني. لذا تركته لي.» ورمته بنظرة إتهام. «لا يعقل أن يكون لك والحال هذه. لا بد وأنك مخدوع. آسفة لأمرك، ولكن المنزل لي!»

كان متمالكاً نفسه كلياً، وهو يواجه ثورتها العارمة، وراح يراقبها بصمت عميق، وقد طوى يديه فوق صدره.

تمنت لوهلة، أن تهاجم طاولته، فتهزه بشدة، ولكنه كان جامداً كالصخر. لن يجدي الأمر. كيف يسعه الاحتفاظ بهدوئه، واثقاً من نفسه. بينما مفروض أن يكون هو المذعور لا هي! إنتابتها موجة رثاء لنفسها حلت مكان الغضب. تمنت أن تفتح فاها، وتصرخ كطفل صغير. لا يسعها ذلك بالطبع. كانت راشدة، وشعرت بالأسى وهي ترى أنها قد باتت على الحضيض. قد يثير بكاؤها شفقته، بأي حال. جعلتها الفكرة تجفل.

انتظر هدوء ثورتها بغموض. راحت تمضغ زاوية شفتها، وهي تأمل أن يكون هو البادىء بالحديث. ولكنه لم يفعل.

lilas.com/vb3 نور

احتفظ بجلسته، وما برحت عيناه ترقبانها، بينما هي تجهد كي تسترد هدوءها، وقد شحب لونها.

تمتمت أخيراً بإذعان: «آسفة. كان ينبغي أن أسيطر على نفسي.»

«لا بأس.» قال بروية. ثم ارتسمت ابتسامة فوق وجهه، وقد ظهرت غمازتاه بوضوح.

وقال مقترحاً: «اسمحي لي أن أقدم لك المزيد من الشراب.» وراح يملأ كأسها قبل أن يتسنى لها الإعتراض. «لا ينبغي أن تدعي تلك التفاصيل، تنال من استمتاعك بأجمل ما في الحياة.» ثم عاد وابتسم ثانية. «إشربي الآن ثم نحاول معاً إيجاد مخرج للمسألة.»

كان الأمر يفوق طاقتها على التحمل! الجملة الأخيرة أفقدتها صوابها. تأججت ثورتها. الأمر ليس بهذه البساطة! تباً!... لا بد من وجود ثمة إلتباس... المعذرة يا ليزي... لا بأس... تناولي كأس شراب... غلت الدماء في عروقها، لادعائه بأن مجرد كلمات بسيطة، قد تسوي المسائل كلياً.

«وما كانت تلك الظروف الخاصة؟» سألته بتحد، وقد تهيأت بشراسة لمواجهة هنائه الذي يسقمها.

سوّى إدي جلسته، وارتشف جرعة قبل أن يستهل تفسير الأمر.

«إلتقيت جدك في أحد فنادق بيروت. كنت يومها أمارس الصحافة. وكان هو أميراً متشرداً، يجوب العالم. كان واحداً من أولئك الأشخاص غير العاديين الذين يرتادون مثل تلك الأماكن. تبادلنا الأحاديث وأطلعني على حاجته الماسة إلى المال كي يتوصل لتحقيق أحلامه.»

«العثور على طائر الجنة...» همست ليزي بمرارة، وقد بدأت تصدقه. كان فريداً من نوعه.

ابتسم إدي معرباً عن تأييده. «هذا صحيح. على أية حال، كنت بحاجة إلى فترة من الراحة أنهي خلالها، رواية اختمرت فكرتها في رأسي. أتينا معاً على زجاجة شراب تلك الليلة. مع انتهاء الزجاجة كنا قد توصلنا إلى قرار بتبادل الممتلكات فآخذ أنا مون آبري؛ وينال هو ما أملكه في المصرف وينصرف كل منا لتحقيق أهدافه. أدرجنا إتفاقاً فيما بيننا. بذلنا جهدنا لجعله نافذاً، رغم كونه غير قانوني.» لاحت إبتسامة لطيفة فوق ثغره وهو يتذكر الوقائع.

قالت ليزي بخشونة: «يسرني أنك تجد الوضع مضحكاً. أوتدرك أنه لم يكن يملك حق بيع المنزل؟»

قال إدي وقد فقدت ملامحه حيويتها: «أخبرني خلاف ذلك، يا ليزي. وقد صدقته. أعجبت بجدك كثيراً. كان مميزاً. ذكراه تثير ابتسامتي دوماً. يؤسفني أنه لم يعش ليحقق أحلامه الغريبة.»

عضت ليزي شفتها وجاهدت في إخفاء دموعها. لم تكن في وارد المجادلة. لطالما أمتعتها ذكرى جدها.

شعرت بألم في معدتها. أزاحت كأسها، وأغمضت عينيها. أخذ جدها ملكية مون آبري معه إذن؟ هذا في اللحظة التي احتاج فيها إلى المال. إحتاج ولا ريب، لمبالغ ضخمة للقيام برحلته البعيدة. على أية حال، يبدو أن إدي يحتفظ بوثيقة قانونية خاصة بالمنزل، مهما تكن حجتها واهية. إلامَ أدىً بها كل ذلك؟ أكان عليها رفع قدمها عن

liilas.com/vb3

الفرامل، ثم تثبيت دافعة العربة نحو الهاوية، لتعلن بعدها إفلاسها؟

ظهرت أمام عينيها صورة والدتها، وهي ترف أهدابها بسرعة، كما تفعل عادة عندما تحذرها من المخاطر التي تحيق بها، وقد زمت فمها الصغير. إنتشلها هذا من بؤسها.

فتحت عينيها ورمته بابتسامة مشرقة. «أنت حتماً لا ترغب بأن تتزوجني، أليس كذلك؟» سألته بجفاء.

بدت عليه علامات الحيرة. «أتزوجك؟»

«أجل.» قالت متنهدة، وأرسلت ضحكة جوفاء. «كما ترى، لقد حذرتني أمي من المجيء وإستهلال أعمالي. قالت إنها تخشى أن أمنى بالفشل، وهي لا تحتمل فكرة ترداد إسم العائلة داخل المحاكم.»

تنهدت ثانية. «بريتويت. تردده دوماً وكأن على الجميع معرفته... كأنه أحد الأسماء الارستقراطية في انكلترا، بينما دليل الهاتف يحوي آلاف الأشخاص من العائلة نفسها! على أية حال، الآن وأنا مهددة بالإفلاس، من واجبي أن أسعى لتغيير إسمي، وإلا، أصيب والدي بنوبة قلبية، إستناداً إلى أقوال أمي.

ضاقت عيناه. ثم ضحك. هذه المرة، لم تشاركه الضحك. كان الموقف يستدعي الأسى. حيرتها فكرة بيع جدها المنزل، دون إخطار الجدة. وحتى إن حدث ذلك بطريقة غير قانونية. من المؤكد أنه أعلم الجدة بالأمر عند عودته. كانا على وفاق تام، رغم الرحلات التي كان جدها يجوب خلالها العالم. كانا معاً خلال الأشهر الستة التي سبقت وفاته. لا بد أنه أخبرها، وبادرت هي إلى تبديل الوصية. عمدت جدتها

دوماً إلى تبديل وصيتها. كانت هذه هوايتها المفضلة بعد أن باتت ترهقها أعمال الحديقة. لا بد من وجود فرصة ما، من يدري؟

«علينا أن نستشير المحامي في إيجاد مخرج ما» قالت أخيراً.

هز رأسه بريبة، محتفظاً بصمته.

«على كل حال، العقد الذي تملكه يثير الشكوك.»

«حسناً، ربما... ومع ذلك كما ذكرت...»

«لا أتوقع أن تذكر ما يثير الشكوك حول عقدك الثمين.» قالت بحيوية، وقد استعادت ثقتها بنفسها. مدت يدها وجذبت نحوها كأس الشراب. «ولكنني لن أستسلم بسهولة، أتعلم ذلك؟»

«لم يخطر على بالي.» قال ممرراً لسانه فوق شفتيه: «أنك قد تفعلين.»

lilas.com/vb3

الفصل الثاني

حاولت إيجاد معانٍ، لتلميحات إدي الهدامة فتسارعت أفكارها وقد خذلها جسدها إذ فضح إرهاقها. تثاءبت وتمططت عدة مرات، وقد أفلت منها اعتذار شبه مكتوم من خلال تثاؤبها.

قال معلقاً: «لقد أمضيتِ يوماً متعباً. يستحسن أن تخلدي للنوم. ادخلي غرفة الضيوف. وسنرى ما يسعنا القيام به صباح الغد.»

«غرفة الضيوف!» تعلم أنه لا يقصد إهانتها، إنما فكرة أنها ضيفة أججت في صدرها نار الغضب. «تقصد تلك الغرفة الحقيرة في نهاية الرواق بقرب مخزن الكتان؟ كنت أخططلتحويلها مخزناً لبضاعتي! إنه منزلي، كما تعلم، إلى أن تثبت خلاف ذلك.»

أجاب بنبرة تفتقر للرصانة. «أجل.» وأردف بخشونة: «أقصد غرفة الضيوف. قد تلاحظين بعض التعديلات. بات مستودع الكتان ملحقاً بالحمام الآن. ستكونين ضيفة معززة في منزلي.»

فأجابت بعناد: «لا بأس، سأجعل من الغرف الخارجية مكاناً لإقامتي. أنوي إقامة مشغل للخزف في الغرفة الكبرى، وأضع في الصغرى سريراً و...»

أصدر أصواتاً خافتة بلسانة. كانت واثقة من أنها لن تؤثر عليه مهما فعلت. كان هدوؤه الواضح ينبىء بعدم

استعداده للتفاوض معها، الأمر الذي بعث بعض الطمأنينة في قلبها.

قال ببرودة: «يا للسخافة. أوافق على أن تستشيري محامياً، قبل توقفك عن المطالبة بمون آبري. ولكنه ليس منزلك ولا يسعك الإقامة فيه. وما دمت قد سمحت لك بقضاء ليلتك من باب اللياقة والأدب، فلم لا ترضخين للأمر شاكرة، بدلاً من إثارة المتاعب حول إقامتك في الفناء؟»

أعاد إليها أسلوبه العدائي ثورتها. «إنه منزلي وسوف أنام حيث يحلو لي...» قالت ذلك بضراوة، ملقية خصلاتها وراء كتفيها، ثم حثت الخطى خارجة تستكشف مسكنها الجديد.

عادت بعد قليل، وقد احتقن وجهها غضباً. «غرفة نومي ومشغلي كدست فيهما أكياس كثيرة. أكون ممتنة لو أنك رفعتها من هناك.» عقدت ذراعيها حول صدرها، موحية بأنها بصدد تنفيذ أعمال هامة.

إرتسمت في عينيه برودة مفاجئة، وقال: «إنه علف للحيوانات. وتحديداً، بلوط للدواب. لقد سمحت لأحد المزارعين، بأن يستخدم الغرف الخارجية كمخزن للعلف. لو علمت مسبقاً بقدومك، لاتخذت إجراءات أخرى، وبما أنه...»

«إذن سأنقلها بنفسي.» قالت ذلك وقد اتخذت موقف التحدي.

انتصب واقفاً بتكاسل وأمسك بمعصمها. وقال بحزم: «ليزي، لا يمكنك القيام بذلك...»

كانت تقف مكتوفة الذراعين فاضطربت من لمسته.

lilas.com/vb3
نور

لاحظ ارتباكها. تركز نظره فوق يده، التي سببت ارتباكها وارتفع حاجباه بدهشة.

قال برقة وقد لاح حول عينيه طيف ابتسامة: «حسناً...»

«كيف تجرؤ؟» سألته بلسان مرتعش، وقد جف حلقها. «أطلق ذراعي!»

أفلت أصابعه، بهدوء، مطلقاً ذراعها. تحولت عيناه إلى مرآة ثاقبة، لا تعكس سوى ردة فعلها.

قال بصوت أجش: «الأكياس. ستتلف إن لم تحفظ في مكان خاص. صاحبها يعاني الفقر الشديد، وهو يحاول تنويع أعماله الزراعية، ليؤمن القوت لعائلته. إن أفسدت غلته، فإن حيواناته، وبالتالي عائلته، ستقاسي الأمرين. لذا عليك نسيان كل ما يتعلق بحياة الغجر، واختاري ما بين المكوث في المنزل، أو العودة إلى ألبي وإيجاد مسكن مريح.»

«لن أفعل.» تمتمت، والغضب يتملكها. «لن أرحل غداً، ولا بعد غد. إنني أسعى لإقامة مشغل للخزف هنا. وأكثر من هذا، لقد فعلت ذلك...»

«فعلت ذلك؟»

«أجل. إنني أملك آلاف الرسائل المطبوعة والتي تحمل هذا العنوان. عدة مصارف في انكلترا وفرنسا، فيها حسابات جارية باسمي. لقد اتخذت ترتيبات خاصة، فاتفقت مع إحدى الشركات وسيحضر عملاؤها لتسلم البضاعة. و...» وبحثت عن جزء من صحيفة كانت تضعه مثنياً في حقيبتها... «انظر!» وقدمت له الجزء المقطوع من الصحيفة. دنا منها وخطفها من بين أصابعها. راح يقرأ عالياً،

وقد طغى على صوته التهكم: «سيدة أصص الأزهار الفخارية... ملائمة للاستعمال في الهواء الطلق أو في المستنبتات الزجاجية. هذه السيدة المبتكرة قادرة على تهيئة جو مدهش حتى في أكثر الأماكن كآبة وذلك بعد زرع الأصص بالنباتات المتسلقة الخضراء.» توقف فجأة، وتفرس برهة ببقية الإعلان، ثم نقل نظره إليها.

«تعنين أن تلك الإعلانات ظهرت في الصحف! إذن تديرين أعمالك من منزلي؟»

قالت وقد رفعت رأسها: «لم لا؟ لي حق التصرف كما يحلو لي في منزلي الخاص.»

أجابها بفظاظة: «سأوافيك بكل رسائلك.» ما عليك سوى توقيف أعمالك تلك، وتنفيذها من موقع آخر.»

وضعت ليزي لسانها بين أسنانها، معتبرة هذا دليلاً على صعوبة التفاهم. تكمن المشكلة في إثبات أحقية أحدهما لملكية المنزل، وهو الآن يمسك بزمام الأمور. الغرف تحوي مفروشاته، مأكولاته في غرفة المؤنة، والأنابيب تنضح بمياهه الساخنة. التملك، على ما تذكر، يمنح صاحبه تسع نقاط بحسب القانون... مع ذلك يصعب عليها الاستسلام.

«لا يسعني تغيير العنوان.» قالت ببؤس، وهي تبذل جهدها للسيطرة على انفعالاتها وإعادة النقاش إلى التعقل مجدداً. أحست بالحرارة تنبعث من وجنتيها. «لقد وقّعت عقداً. إن بدلت العنوان سأجازف بخسارة كل شيء...»

شعرت وكأن حاجبيه قد اختلطا بشعره، إذ رفعهما عالياً عند سماعه تلك الجملة.

قال وقد نضح صوته بالشك: «تقصدين أنك وقعت عقداً للعمل من هنا...؟»

«أجل.»

عقد ذراعيه فوق صدره ثم مال إلى الجدار الذي يحيط بالردهة وقال، بنبرة لا تخلو من مسحة تهديد: «إنني بالانتظار...»

تباً. هاتان الذراعان، المفتولتان اللتان لوحتهما الشمس، تعترضان ناظريها. يا له من منظر مسلّ! أجبرت عينيها على التركيز فوق وجهه. ولم يكن هذا بالأفضل. الجبين العالي، العينان الثاقبتان، الملامح القاسية، الفكان القويان، كل هذا يدعو للرضوخ. ركزت نظرها فوق سلسلة الجبال الممتدة في الأفق.

قالت بصعوبة: «وقعت عقداً دعائياً مع الصاندي ديكوردر.»

بئس الأمر. يبدو أنها ستضطر لإخباره بكل شيء ومن الأفضل أن تنهي الأمر سريعاً. أطلقت زفرة حارة. «تعاقدت معهم على نشر إعلاناتي في ملحقهم الجديد. قدموا عرضاً خاصاً للأشخاص الذين يوقعون من أجل الإصدار الأول، وتعهدوا بنشر إعلاناتهم، طيلة ستة أشهر متواصلة. كانت صفقة هامة.»

سألها وقد ضاقت عيناه: «أي نوع من الصفقات؟»

«نصف الثمن. ونصف الثمانية آلاف ونصف من الجنيهات يعتبر مبلغاً ضخماً. لذا، لا يسعني مخالفة العقد بتغيير عنواني. وإن فعلت، فسيخلون بتعهداتهم. يعني ذلك خسارتي لخمسة وعشرين إعلاناً من أصل ستة

وعشرين دفعت ثمنها. بعت كل شيء. مفروشاتي، سيارتي... كل شيء، كي يتسنى لي الانطلاق مهنياً. لا أحتمل دفع المزيد. لا أملك حتى ما يخولني شحن عربتي إلى انكلترا. وكما ترى...» أردفت، وقد هزت كتفيها تلقائياً: «علي البقاء هنا، شئت أم أبيت.»

هز رأسه بهدوء، وقد جمدتها نظرته الثاقبة. «ربما. إنما ليس هنا. لن أتعرض لمشاق ملاحقة المعاملات في دوائر البريد والهاتف، ومن يعلم ماذا أيضاً. وكل هذا بسبب صفقتك تلك!»

فتمتمت: «ليست المخابرات الهاتفية... لم يتسن لي تأمين خط هاتفي... ولكنني كنت سأفعل خلال هذا الأسبوع...»

تعابيره أخمدت اعترافها وقال: «مع ذلك، سوف يكون هناك فترة ستة أشهر من الازعاج بينما أنا أعمل على إتمام عملي. وذلك بسبب طمعك عندما وجدت صفقة فيها التوفير. كان يجب أن تنتظري حتى تبدأ التنزيلات في شهر تموز، عندئذٍ تتمكنين من شراء الملابس بثمن أقل.»

حاولت ليزي التمسك بموقفها بعناد. كانت تبتاع ملابسها في موسم التنزيلات! علمت أنها ملاحظة عابرة ترمي إلى إذلالها، ولكنها تجاهلتها. لم يكن هذا في حسبانها.

قالت مدافعة: «لم أقصد إزعاجك! أهي غلطتي إن أنتَ أبرمت صفقة خاسرة مع رجل ثمل لا يحق له بيع ما لا يملكه؟ أما بالنسبة إلي، فقد استغللت عرضاً لا يعوض سيخولني عرض منتوجاتي أمام آلاف العملاء اسبوعياً من دون أن

liilas.com/vb3

اضطر لمواجهة المتاعب في الحصول على متجر لهذا الغرض.»

«يبدو أنك أبرمت صفقة دعائية. من الواضح أنك ابتلعت الطعم الذي أعدوه.»

«لم أفعل! لست بهذا الغباء. كافحت عاماً كاملاً، بعد تخرجي، لبيع منتوجاتي. عثرت بعدها على متجر رضي صاحبه بالمخاطرة، فعمد إلى بيع البضاعة بالمفرق وبأسعار مخفضة. لم يتسن لنا ترميم القطع المهشمة، والمردود كان ضئيلاً. يعاني صناع الخزف من متاعب تسويق منتوجاتهم. لذا، أعتمد مبدأ الملحق، لملء فراغ كبير في السوق...»

«وملء جيوب مالكي الصحيفة، عملت في الصحافة وأعلم كنه هذه المسائل.»

«ولكنك تجهل ما يعترض صناع الخزف من مشاق، أليس كذلك؟ إن كنت سأخفق في بيع منتوجاتي، والصحيفة هي وسيلتي الوحيدة، لذلك، سأكون على الأقل قد حاولت. وإن نجح الأمر... فلن يكون ما صرفته قد ضاع سدى. على أية حال، أنا أعلم أنه لا تعنيك طريقة تبذيري للمال، أو أسلوبي بالعيش!»

زمجر ثم رفع راحتيه إلى فكه، وراح يفرك وجنتيه بتوتر، وكأنه يمحو وجودها بحركته هذه.

قال بحدة: «لن تبقي هنا.»

كانت على علم مسبق بالأمر. للأسف، كان يجهل أنه يتعامل مع فتاة اعتادت أن تحبط آمالها في المعارضة والمعاندة، كانت تعرف جيداً أن من تواجهه لن يجدي معه

الاصرار بسبب عناده الشديد. ولكنها دائماً كانت تشعر بالفخر للاستمرار في المعركة حتى النهاية المحتومة. لو عرف ذلك، فكرت باستياء، لكان تركها تمضي، ولوفّر عليها الكثير من الوقت.

«آسفة، ولكنني مرغمة.» قالت بحزم، وقد وضعت يديها فوق خصرها.

«بوسعك تدبير أمر إقامتك في آلبي. سوف أرسل لك بريدك. لا حاجة بك للتبليغ عن تبديل مكان إقامتك. فهم، على الأرجح، يهملون التقصي عن زبائنهم. من السهل إيجاد منازل للإيجار في المدينة، وسأقرضك...»

«قطعاً لا!» هتفت وقد أدهشتها النبرة القاسية التي رافقت عبارتها تلك. أردفت وقد احتقن وجهها: «شكراً لك، يكفيني ما أملكه. لن أكون بحاجة لأموالك. ولن أحتاجك كساع مجاني في أعمالي. لن أقف حجر عثرة في دربك. ولكنني لن أرحل، كذلك.»

حدق بها بثبات. «لن تكوني حجر عثرة بدربي!» ردد بدهشة. «لا تقطعي وعوداً تعجزين عن الوفاء بها، ليزي بريثويت! لصبري حدود، وعلي اللعنة إن كنت سأتساهل مع مراوغة مثل... مثلك!»

حثتها كبرياؤها على العودة إلى عربتها، وملازمتها، ريثما تنتهي الإجراءات الخاصة بالمنزل. ولكنها إن نفذت فكرتها، فستخسر العقد، ومعه أحلامها الخاصة بتصنيع الخزف إلى الأبد. وبأية حال، لا مكان لها تلجأ إليه. أرادت لها جدتها الإقامة هنا. وعليها الثبات على موقفها.

أدار لها ظهره قبل معاودة الحديث.

liilas.com/vb3

«يعود إليك الآن اتخاذ القرار المناسب. فاختاري ما بين الصعود إلى غرفة الضيوف، أو التواري بعربتك المريعة تلك.» قال ذلك بلهجة آمرة، طغى عليها التهديد. «لم أعد في وارد مناقشة الموضوع.»

كان محقاً. لم تعد الغرفة حقيرة، بل أثثت بشكل مريح وبأسلوب قروي. بعد تردد قصير، قررت ليزي القبول بالغرفة، حفاظاً منها على حقوقها في المنزل. إن عنادها بشأن إقامتها خارجاً، كان ليضعف موقفها في القضية. أدارت له ظهرها محاولة إخفاء الدموع التي سالت من مقلتيها.

بعد أن أخذت حماماً دافئاً، أحست بالسرير يدعوها، ولم تلبث أن تمددت فوقه مرهقة، وغرقت ما بين الأغطية القطنية، وقد تناثر شعرها فوق الوسادة. لم يخطر ببالها أنها قد تغفو إذ كانت تتنازعها هواجس عديدة. إنما الاسترخاء في سرير مريح، وبعد ليلة مرهقة في العربة، حثها على النوم.

فتحت عينيها، وقد أدركت بدهشة أنها غفت بعمق مذ لامس رأسها الوسادة. شعرت بالانتعاش، وقد أيقظها النور المتسرب عبر أطراف الستائر. أدركت بنظرة خاطفة، أن الساعة قد جاوزت العاشرة. كانت قد أوت إلى فراشها في ساعة مبكرة فلا عجب أن تستيقظ بهذه الحيوية. وثبت تاركة فراشها ودخلت الحمام لتنظيف أسنانها.

لا بد أنه سمع الضجة التي أثارتها، إذ طرق بابها بعد دقائق قليلة قائلاً: «ليزي؟ عساك ارتديت ملابسك، أود الدخول...»

«لحظة و...» ثم سارعت إلى ارتداء ثوبها المطرز، وأسرعت لفتح الستائر قبل أن يفتح الباب.

أحضر صينية، وضع عليها القهوة والكرواسان، وبعض الزبدة والمربى، وألقى بحقيبة ممتلئة بجانب السرير.

قال بفتور: «الفطور. آمل أن تكوني راضية.» قال ذلك وقد فقد صوته الحدة، التي سادته ليلة أمس. شكراً. كان مرتدياً قميصاً قطنياً أزرق اللون، وقد ضاق كماه بساعديه. مع أن أحداث الأمس ما زالت تشغل تفكيرها، فهي، على الأقل، لم تنس ما لساعديه من تأثير غريب عليها. قررت أن تجابه متاعب إقامتها الجبرية في منزله أو ربما منزلها؟ ويستحسن أن تتجنب النظر إلى ساعديه خلال ذلك.

«شكراً. هذا لطف منك..»

هز منكبيه، قائلاً: «في الواقع، الفطور عذر ليس إلا.» حمل الحقيبة وأفرغ ما فيها فوق السرير. «هذا.... في الواقع ما أردتك أن تشاهديه!»

حدقت مذهولة بكدسة الرسائل الملقاة فوق السرير. «آه...» قالت وقد فغرت فاها لمرأى الرسائل المكدسة. ثم تناولت مغلفاً ففتحته، لتجد بداخله شيكاً مرفقاً برسالة وقسيمة اقتطعت من صحيفة ما. ثم فتحت عدة مغلفات لتفاجأ بالنتيجة نفسها.

كان متكئاً إلى الجدار، غير آبه بما يجري.

إنه يشغل تفكيرها مذ فتحت عينيها. مرت برأسها ذكرى رفضه لبقائها بالأمس، وألهبت رأسها فكرة تعنتها المستميت. سرعان ما اكتشفت أن ليونته ليست سوى قناع يخفي صلابته. ولم يكن في نيتها معرفة المزيد عنه،

liilas.com/vb3

عدا ذلك كان لها تأثير الحشرة عليه، وفي الحقيقة أن الحشرة قد تسبب إزعاجاً طفيفاً، وهي تشك بأن يكون تأثيرها قد بلغ ذلك الحد.

لكن لم يكن لوجوده التأثير الذي تحسه الآن، وها هي ذي مأخوذة بقامته المهيبة، وقد وقف قبالتها يراقب عملية فتحها للرسائل. تناست مدى جاذبيته... وتناست كذلك الجهد الذي تبذله لتتجنب النظر إليه.

«هذه طلبات...» قالت مبتسمة، وكأن ما ذكرته جدير بتفسير الأمور.

تنفس بعمق، لدرجة أن صدره انتفخ بوضوح تحت قميصه الزرقاء. ثم تنهد ساخطاً:

«إذن، هذه كمية الرسائل التي سترديني خلال الأشهر الستة القادمة؟»

اتسعت عيناها قائلة: «لا أعلم. لا ينبغي أن أفكر هكذا. يبدو لي أنه مجرد... حظ مبتدىء...»

«ظننت أن للإعلانات تأثيرها الإيجابي. أي أننا نبيع على قدر ما نُعلن...»

«أجل.» قالت بغموض، وقد انهمكت يداها بإحصاء المغلفات. مندوبو المبيعات ذكروا كلاماً من هذا النوع أيضاً. ولكنني لست متأكدة من الأمر. بأي حال، ستنال منتوجاتي إعجاب الناس فيعمدون لشرائها، وقد يحصل خلاف ذلك. لن يعود للإعلانات الفضل بالتأثير عليهم، أليس كذلك؟»

فقال: «من يعلم؟ كل ما أعرفه أنني لا أنوي قضاء الستة أشهر القادمة في إعادة عنونة الرسائل.»

«لست مرغماً على ذلك.» أجابته بسذاجة. لم يكن في نيتها معاودة الجدال، ولما يبدأ النهار بعد! «على أية حال، سأفعل ذلك بنفسي.»

تجهم وجهه، ولكن هذا لم ينقص من جاذبيته. «أظنني أوضحت الأمور ليلة أمس، إنما إن اضطررت لتكرار...»

«لا حاجة للكلام. إنني متفهمة جداً. ولكنني كنت واضحة كذلك. فلنتجنب خوض غمار الموضوع مجدداً.»

«إنك واهمة، ليزي بريثويت، إذا كنت تظنين أنه بوسعك إقناعي بالاستسلام.»

«لا داعي لأن يستسلم أحدنا. يحق لكل منا الإدعاء بأن البيت بيته، ويحق له الإقامة فيه. يعود القرار الأخير للقانون. وإلى أن يحصل ذلك، عليك باحترام مشاعري كما احترم أنا مشاعرك.»

زفر باستخفاف، وقال: «كأني بك تعنين أنه علي السماح لك بالبقاء في منزلي!»

«لا! لا أطلب منك السماح لي بالبقاء فهذا يجعلني ضيفة. لا أنوي التطفل عليك أو التدخل في شؤونك الخاصة. إنني أطلب فقط الإقامة في منزلي بسلام، والذي يعتبر منزلك في الوقت الحاضر.»

«هذا جنون!»

فقالت بحزم وهي تهز رأسها: «إنها ليست مسألة تعريف الكلمات. الأمر يتعدى ذلك. إنها مسألة مشاعر، وطريقة تعامل تجاه قضية مزعجة لكلينا.»

للمرة الأولى مذ ثارت ليل أمس أحست بنظرته إليها وقد اتخذت طابع الحدة.

liilas.com/vb نور

هز كتفيه وقال: «رغم ذلك، لطالما اعتبرت هذا المكان ملكي، إنني أحتاج للهدوء كي أمارس أعمالي. لقد ابتعت المنزل لهذا السبب، بالدرجة الأولى! إنه يسهل عليك تدبّر أمر كهذا، بخلافي أنا.»

«يسهل؟ وأنا أرقد في فراش أنت ابتعته، في غرفة أنت أثثتها، وأستحم بمياهك الساخنة؟ أنت تمازحني ولا شك! أنا مضطرة لأن أقنع نفسي، في كل ثانية، أنه منزلي ولي ملء الحق بالإقامة فيه. لذا، لا يخطرن ببالك أنني قد أولي الأدبار. إن أردت طردي فعليك باستدعاء الشرطة. وهذه الخطوة تتطلب إثباتاً من جهتك على إنكار حقي في الإقامة هنا...»

تحجرت مآقيه، وتصلب فكه. وقال بنبرة قاسية: «كلا.»

للوهلة الأولى شعرت ببعض الوهن يجتاحها. إلى أن أضاف بفتور: «لن تصادفي المتاعب إن تريثت في معرفة المزيد قبل رحيلك. لن أدفع ثمن تهورك.»

هذه تهمة جديدة. لا شيء يضاهي اتخاذ قرار فوري وسريع كهذا. عندما علمت بأن جدتها قد تركت لها مون آبري ترقرق الدمع في عينيها. كانت مقتنعة بأنها سعيدة حتى ذلك الوقت. إنما عندما سمعت تلك الأخبار، أدركت أنها دوماً كانت تسعى للوصول إلى ذلك الشعور من اكتمال السعادة... احساسها بامتلاك منزل تأوي إليه. لا شيء كان ليردعها... ولا شيء أبداً يجعلها تتراجع؛ وإذا احتاج الأمر، فستعمد إلى نصب خيمة في الحديقة!

«سأعمل في المرآب.» قالت ذلك بتحد، محاولة إخفاء الرعشة التي اجتاحت صوتها. وسأمضي وقتي ما بينه

وبين غرفتي. وسأسهم بدفع نصف الفواتير المتوجبة، ولكنني لن أرحل أبداً.»

نظر إليها بازدراء... «هيا، سندريللا.» همس بتهكم. بالأمس كنت تعانين الفقر المدقع...»

حملت رزمة الرسائل ملوحة بها أمام عينيه. «هذا، كان بالأمس. اليوم أملك سبعة وخمسين طلباً.» شعرت براحة بفعل الانتصار الذي حققته. وأضافت بصوت أجش: «سندريللا...» تحولت إلى أميرة. لذا، إن كنت لا تمانع، فلنعتبر الأمور منتهية.»

أثار دهشتها أن راح يضحك، وبالطريقة نفسها التي اتبعتها وهي تفصح له عن اعتقادها بأنه فرنسي الجنسية. ثم أردف: «ولكنك لم تتحولي بعد إلى أميرة. على أية حال، لم يقبلك ضفدع. ربما يكفي أنني أملك ساعدين فرنسيين.» انحنى بعدها ليلثمها فوق خدها بسرعة خاطفة.

أذهلها الأمر. كان يفترض بها أن تضحك. عرفت ذلك، رباه. ولكن تصرفه جعلها تلوذ بالصمت التام. أحست ببشرتها تتقلص وقد أيقنت أن وجنتيها قد اكتستا بحمرة الخجل.

إخفاقها في الضحك حيرها بشكل واضح. وعندما استطاعت رفع رأسها، لمحته يمعن النظر خارجاً، وقد بدت على وجهه تعابير مبهمة.

جذبت أطراف ثوبها الرقيق، وقد أحست برعشة خفيفة. لا بد أنه يشعر بالدفء لأن أشعة الشمس تنشر الدفء والحرارة.

التفت فجأة وفتح الباب. ولكنه همس قبل انصرافه:

liilas.com/vb3

«سأنظف لك المرآب. لن أسمح لك أبداً بالاقتراب من سيارتي بعدما رأيت كيف كنت تستعملين عربتك. واختفى قبل أن تتمكن من الإجابة.

أذهلها انتصارها غير المتوقع، وأشعرها بالسعادة أيضاً بالطبع. ولكن كان يقلقها أمر لاحظته مرتين لتجاوبها الحسي عندما يلمسها. وكأني به قد فقد رصانته لتحل مكانها... سذاجة جلية. ألأجل هذا بدل رأيه بشكل مفاجىء؟ ألأنه لمس ما له من تأثير بالغ عليها؟ أيؤمن حقاً بما يضفيه وجودها من إيجابيات؟ قررت ألا تدعه يأخذ عنها انطباعاً سيئاً. بالنسبة لها، لم تكن مهتمة بالتورط معه. لم تكن لتهتم حتى بشيء أكثر ابهاماً من ذلك.

اتهمتها آنا ذات يوم بتعمدها جرح أنفها بهدف تشويه وجهها الذي يجذب الشبان. «تمنعك عن الزواج لا يعني بالضرورة عدم إقامة علاقة رومنسية، ولو لمجرد التسلية.»

المصيبة أن ليزي كانت ملمة تماماً بجوانب تلك الأمور، وتدرك أنها غير مهيأة لخوض غمارها. وقد كان ممكناً أن تتخذ لنفسها حبيباً، وقد نضجت وأصابت نجاحاً فنياً. حبيب يطرق بابها صباحاً وبيده باقة ورود حمراء. تبادله الآراء الفنية والأدبية، أو يقيم علاقة معها. ومعلوماتها المتعلقة بالنقطة الأخيرة كانت ضئيلة، وقد كونتها من العلاقتين البريئتين اللتين أقامتهما أثناء الدراسة. على أية حال، كان يمكن لحبيبها، ورغم تعلقه بها، أن يتخلى عنها

ذات يوم ويمضي في سبيله. الأمر الذي يثير غضبها، فتنصرف لصنع الأواني، وقراءة الكتب، برفقة طباعها الحادة.

قد يغدو هذا ممكناً، مع تقدم السنين بها. وهي للآن تحتفظ بذكريات عديدة من أيام الصبا الحافلة ـ بالأحلام الرومنسية.

liilas.com/vb3

الفصل الثالث

ألقت ليزي بثوبها الوردي جانباً، وارتدت سروالاً قصيراً، وقميصاً قطنياً أبيض اللون. ثم عقصت شعرها، وارتدت قبعتها الواسعة بغية إخفاء أنفها. لم يكن ليشغلها أمر عن الأفكار التي تراودها.

لم يكن ينظف المرآب، بل كان غارقاً في أعماله. كانت تصلها من إحدى الغرف، الجلبة التي يصدرها وهو يعمل على آلته الكاتبة. كان المرآب مغلقاً، وقد خطر لها أن طلبها للمفتاح قد يكون مخالفاً لاتفاقهما. بأي حال، كان لديها الكثير لتفعله.

التقته عند الغداء، وقد بدا منشغلاً.

قال بترحاب: «مرحباً! هلمي وشاركيني الغداء.»

«لا، شكراً. قصدت المدينة، وابتعت بعض الأطعمة، سوف أحملها...»

فقاطعها قائلاً: «لا تكوني سخيفة! طلبت إلى السيدة رودجت إعداد وجبة غداء لشخصين. ستحضره بعد قليل. اجلسي.» وأشار بيده إلى أحد المقاعد.

حال كدرها دون ممانعتها، فأطاعت صاغرة وهي تتمتم: «علينا إيجاد تسوية مناسبة للشؤون المالية.»

فأجاب بخشونة: «سأدفع الحساب، مضافاً إليه عمولة الخدمة.»

أفلتت منها ابتسامة. «الأمر لا يحتمل المزاح. إنني جادة. لا أنوي التطفل.»

هز كتفيه. «لن تفعلي. وعلى الأقل، ليس الآن. دعوتك لتناول الطعام، فحسب. وعندما تفقدينني صوابي، سأدعك تعلمين.»

«شكراً.» قالت مبتسمة. ولكنه لم يلحظ ابتسامتها. كان يشوب تصرفاته تباعد، يوحي بأنه تقريباً لا يعي وجودها.

«أي نوع من الروايات تؤلف؟» تابعت، وقد صممت على جعل علاقتهما أكثر ودية.

أجاب: «أحاول جعلها من النوع الجيد.»

انتظرت أن يكمل كلامه، ولكنه راح ينقر فوق الطاولة بأصابعه.

لحسن الحظ، أنقذ الموقف، ظهور السيدة رودجت. كانت تحمل اللحم المشوي والسلطة، مع مياه مثلجة، زُيّنت بشرائح الليمون، إلى جانب طبق ضخم من الفاكهة.

أدى انشغالهما بتناول الطعام، إلى فترة صمت، قطعتها أسئلة ليزي له عن مهنته. كان يجيب بأدب، ولكن باقتضاب. اعتمدت الإقلال من الأسئلة، ولزمت الحذر رغم المرح المتكلف الذي يظهره. على الأقل، اختفت معالم الغضب التي سادت لقاءاتهما السابقة.

كان الغداء البسيط لذيذاً. وكانت الوديان المنتشرة مصدر إلهام وسكينة لناظرها، وقبالتها جلس هو بزنديه الملوحين، وجبينه العالي، وخصلاته الداكنة وتلك الإبتسامة القاسية ـ كل هذا لا يدعو سوى للسكينة. عمدت ليزي إلى توجيه عينيها نحو الحدائق... الجبال... أي مكان لا يعكس انجذابها إليه.

liilas.com/vb نور

رمقها إدي فجأة بنظرة ذات مدلول، بينما كان يتناول خوخة من الطبق.

سألها بفضول: «حدثيني عن جدك. كان ذلك العجوز يثير إعجابي. أود معرفة المزيد عنه.»

كان إدي، بصفته صحافياً يملك طريقة خاصة لطرح الأسئلة، تجعله يبدو مكترثاً بالأجوبة. سرعان ما انساقت ليزي وراء ذكريات الطفولة. ثم راحت تروي، كيف كافحت لتؤمن لنفسها مكاناً في إحدى أفضل دورات السيراميك في البلدة، لتكون الطالبة الأولى، ولتؤمن عيشها من عملها الخاص قبل أن تقيد نفسها بسنتين من العمل المكتبي الروتيني.

«ولكنك تخرجت. كان بامكانك إيجاد عمل أفضل.»

«أجل. لكنني كنت أنصرف إلى عملي في الخزف ليلاً، وفي أيام العطلة. ولو طلب إلي تأدية أعمال إضافية، لما استطعت ذلك حتماً.»

«وما كان موقف زملائك من الأمر؟»

«يا له من سؤال شخصي! في الحقيقة، كنت أفقدهم صوابهم...»

«الآن وضحت الصورة!»

«لا تكن فظاً! كانت أظافري هي السبب.»

«أظافرك؟»

«أجل. كانت هنالك ثلاث فتيات أخريات في المكتب، يملكن جميعهن أظافر مقلمة، وشاب ذو ملامح رائعة وأظافر مريعة. أظافري كانت ترعبهم جميعاً.» ثم وضعت يديها فوق الطاولة مبدية أظافرها المقلمة بعناية. «آه، إنها

تبدو بحال جيدة الآن.» قالت ذلك بدهشة: «توقفي عن العمل بالجبس طوال أسبوعين هو السبب. كنت أتحاشى إطالة أظافري، كيلا يدخل تحتها الجبس، ويتعذر علي إزالته بعدها، مهما بذلت من جهد.»

مد إحدى يديه محاولاً الإمساك بيدها، ولكنها جذبتها بقوة ووضعتها فوق حضنها.

علق بنبرة مرحة: «لم أكن لأعضك...»

«أعلم...» تمتمت، وقد راحت تفكر بتغيير الموضوع. لقد تصرفت كهرة شرسة، وكانت تتمنى ألا يطرح عليها أسئلة محرجة من هذا القبيل!

سألته فجأة: «ألديك أسنان إصطناعية؟»

«ماذا؟»

«رباه. أخشى ألا تكون فهمت مقصدي. لم يخطر لي أن تكون أسنانك اصطناعية. إنها في غاية الروعة، وطبيعية إلى أقصى الحدود...» رباه، ماذا دهاها تثرثر الآن؟ لقد عاد لسانها إلى خيانته لها...

«شكراً.» قال بتهكم، وقد راح ينقر إحدى أسنانه الأمامية وكأنه يحاول إثبات طبيعيتها.

«أردت من سؤالي هذا معرفة مكان حصول الأهلين هنا على الأسنان الاصطناعية إذ أنني أحتاج لبعض الجبس الجاف لصنع قوالبي، ويسهل إيجاده حيث تصنّع الأسنان. أتساءل إن كان يوجد في ألبي ثمة...»

هز كتفيه وقال: «ليس لدي أدنى فكرة. اقصدي مونبلييه فتجدين ما تحتاجينه. لدي دليل هاتف، بوسعك الاستعانة به.»

lulas.com/vb3 نور

عادت إلى القائمة، التي كانت تعدها، راجية ألا يكون قد لاحظ ارتباكها، الناجم عن تساؤلها حول أسنانه. لم تصب بإحراج مماثل أمام أي رجل من قبل. وأحست بالعجز يكتنفها. قامت بتسجيل بضع ملاحظات.

قال مقترحاً: «سأقوم بتنظيف المرآب لك.»

رفعت رأسها. «لا داعي لذلك. صدقني، يمكنني القيام بذلك بنفسي. ما عليك سوى فتحه وإخراج العربة. فأنا كما سبق وذكرت لا أقصد إزعاجك.»

انتفض، وتمتم: «أظنك ستكفين عن إزعاجي، شئت أم أبيت. ابدأي برجليك هاتين...»

زمت شفتيها استنكاراً، ووضعت رجليها تحت كرسيها. اعتملت بداخلها أحاسيس بعيدة عن النفور كل البعد. كان عسيراً عليها الامتناع عن التجاوب مع ملاحظاته تلك، بهذا الحبور الطفولي. غداً، سوف ترتدي بنطال الجينز.

«آسفة بشأن رجلي، ولكنني أحتاجهما للحراك. يبدو أنك ستكون مرغماً على الاعتياد عليهما.» أحست بحشرجة تكتنف صوتها فيما هي توضح مقصدها، ولكنها تجنبت معاودة الشجار معه. تنهدت، ثم أضافت بتعقل: «وأعلم أنني لست من النوع الذي يسهل التعامل معه. ولكنني حقاً أستطيع تدبر أموري بنفسي وكذلك بالنسبة للمرآب. بمناسبة الحديث عنه... هل ما زالت الرفوف بداخله؟»

«أجل...»

«آه، حسناً. ستكون ملائمة.» ثم راحت تتفرس في قائمتها، متظاهرة بالانغماس في العمل.

أرجع مقعده وانتصب واقفاً. ابتعد عنها بضع خطوات ثم التفت إليها متسائلاً:

«ليزي، ألديك ذاكرة قوية؟»

قالت بدهشة، وقد أسعدها تبديل الموضوع: «لا ولكن ما زلت أحتفظ بأسناني كاملة...»

ابتسم. «في الواقع أنك تذكرين تفاصيل جد قديمة فيما يتعلق بالمنزل. هل أقمت هنا في طفولتك؟»

فقالت: «لا وإنما قصدته لمرات ثلاث فقط. مرتان مع جديّ أثناء طفولتي، ومرة مع جدتي حيث قضيت ثمانية أسابيع، وكنت يومذاك في الرابعة عشرة من عمري.»

«مضى على هذا عشرة أعوام إذن؟»

هزت رأسها قائلة: «حوالى الأحد عشر عاماً.»

«كيف اتفق إذن أنك تذكرين وجود مخزن الكتان، والغرفتين الخارجيتين، الكبرى والصغرى، وتلك الرفوف في المرآب؟ لا أنكر حتى أين أمضيت إجازتي، عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري.»

فقالت باهتمام: «لا، على الرغم من انقضاء مدة طويلة على بلوغك الرابعة عشرة. الذاكرة تذوي قبل الأسنان، وقد أخبرت...»

«حقاً؟»

«حقاً، هنالك تفسير أكثر دقة. أمضيت ثمانية أسابيع من الصيف الماضي وأنا أعد رسماً هندسياً للمنزل.»

«آه.» قال ذلك ثم انصرف لإخراج عربته، وقد بدا واضحاً أن ذهنه قد ارتاح بعد تلك المعلومات غير المفيدة.

أما ذهن ليزي، فقد اكتنفه كل شيء إلا السكينة. عادت بها

lilas.com/vb3 نور

ذاكرتها إلى تلك الأحاسيس، التي ظنت أن الزمن قد طواها.

مع انقضاء النهار، كانت ليزي تعاني الإرهاق، وقد تحول المرآب إلى ورشة عمل. كان إدي غائباً عند انتهائها، ولكن كان يصلها صدى آلته الكاتبة المتناغم.

راحت ترمق عربته الرانج روفر الحمراء بإعجاب شديد، ووجدت نفسها تقارنها بعربتها المزرية. كانت عربته مثالية لتلك الدروب الوعرة، وتعينها على إرسال الطلبات سريعاً. عليها ادخار ثمن عربة جيدة، وهي الآن مقتنعة بأهمية العمل المقدمة عليه أكثر من ذي قبل.

ازداد اقتناعها بعد تجوالها لساعات في المكان، لقد اكتسب المنزل سمة إدي الخاصة، فداخله هو إدي هولت، أما خارجه فمون آبري، المطبوع في ذاكرتها. فكيف تمت هذه المفارقة العجيبة؟

إنه منزل جدتها، وقد أرادت أن تحتفظ به ليزي. لقد خانتها ذاكرتها، إذ أعادت إليها تلك الصور. ولكن جدها باعه إلى إدي. هناك سوء تفاهم ما، يسود كل ذلك. ألا يعتبر قرارها بمقاضاة إدي تشكيكاً بمصداقية جدها؟ وهذا طعن واضح لذكراه. أيجدر بها الرحيل؟ أتترك إدي يحتفظ بالمنزل، الآن وقد رسخت أعمالها، وأصبح بوسعها إيجاد مكان للسكن؟ وماذا إذن؟ لا. لن تتخلى عن إرث جدتها. ربما توصلت، متى باتت تملك المنزل، إلى إعادة المال إلى إدي...؟

في الواقع، أثار جداها الكثير من المتاعب في حياتهما. فمن ازدراء جدتها للآخرين، إلى أسفار جدها، وقد ناهز

الستين من عمره، كل هذا جعلهما مصدر متاعب دائم، ولم ينته الأمر عند هذا الحد! ولكنها لن تعمد حالياً إلى مراجعة محام في الأيام القليلة المقبلة. إذ كل ما يهمها الآن هو إنهاء أعمالها.

جاء يدعوها للعشاء قرابة التاسعة مساء. من الواضح أنه قد استحم فقد بدل ملابسه وارتدى سروالاً أبيض مريحاً، وقميصاً أبيض تدلت أطرافه. تأوهت إذ خطر لها بأن عينيها ستصطدمان بمحياه. إن نظرتها إليه تبعث في نفسها الارتباك. كانت تجهل أن نظراتها تفضحها، وهي لقلة تجاربها، تعجز عن وضع الأمور في نصابها. كم، مثلاً، يدوم هذا الأمر؟ لم يسعها سوى أن تأمل أن ينتهي بالسرعة التي بدأ بها.

تناولا الطعام في الشرفة، مع أن إدي نوّه بأن الجلسة خارجاً غير محبذة في هذه الفترة من الصيف، وقال: «ألهواء ما يزال يهب حالياً. يكون النسيم عليلاً خلال النهار، ثم يتحول إلى ريح باردة فأعمد إلى إشعال النار. ولكن الحر فاجأنا باكراً هذه السنة.»

علقت بسخرية: «الجو ثبت أننا بريطانيان حقيقيان.»

لاح طيف ابتسامة فوق وجهه. «هذا صحيح.» أضاف وقد راحت عيناه تطوفان بها: «خاصة وأن هنالك أموراً أهم للمناقشة. علاقتنا مثلاً.»

أدهشها قوله. «ماذا تقصد؟» سألته بريبة. ثم، وقبل أن تحاول إيجاد تعليل لقوله، تابعت: «تقصد المال واستعمال الهاتف، والمطبخ وكل هذا؟ أظنني أوضحت أمر مساهمتي بالمصاريف.»

liilas.com/vb3

تنهد وقال: «أجل. هذا أيضاً.»

قالت معترضة: «إنك تتغاضى دوماً عن الموضوع، وكأن لا أهمية له. ولكنه هام بالنسبة لي. وها أنذا أتناول طعامك مجدداً، وبصفتي ضيفة. ولكنني لست ضيفتك. وسأشعر بالارتياح متى بدأت بدفع ما يتوجب علي.»

قال: «أنت تضخمين الأمور، يا ليزي.» السيدة رودجت تعد طعام العشاء عندما تحضر صباحاً للتنظيف، وتضعه في الفرن ولن يضيرها أن تعد الطعام لشخصين أو لشخص واحد.»

تجهم وجهها. «ومع ذلك فهذا يضعني في خانة الضيوف. وإذا ما تناولت ما تعده فعلي أن أقاضيها أجرها، وهذا ما سأقوم به.»

«لا تكوني مدعية. أحوالي المادية ممتازة هذه الأيام. الكتابان اللذان نشرتهما أعطيا مردوداً جيداً، وأمامي عروض حسنة بالنسبة للكتاب الذي أعده.»

قالت بخبث: «أنا مسرورة لأجلك. إنما لا أرى أية علاقة لي بالأمر إلا اذا كنت شاعراً بالذنب في ما يخص المنزل.»

ضحك، وقال: «لم أعتد التمرغ بالذنوب، يا ليزي. لقد دفعت لجدك مبلغاً باهظاً ثمناً لمنزله.»

هزت كتفيها قائلة: «مذنب أم بريء، لا سبب يدعوك لتحتملني.»

«اصغي، كانت لي أحلامي الخاصة أيضاً، عند حضوري. دفعت كل ما لدي لأبدأ بالكتابة. أعلم كيف تبدو الأمور. كانت عائلتي ميسورة لحسن الحظ ـ فكانوا يرسلون إلي بالحوالات الضخمة في أعياد الميلاد، ظناً

منهم أنني أفضل اختيار هديتي بنفسي. كنت أختار عادة الجبن والخبز. وكان أشقائي يحضرون لقضاء العطلة، حاملين الكثير من الأطعمة، ويتركون وراءهم الصابون ومعجون الأسنان، بالإضافة إلى حذاء يناسب قدمي، مرة كل فصل شتاء. ربما أحاول دفع ما علي من قروض.»

أمن أجل هذا كان متعاوناً إذن؟ بمحاولته مساعدتها على تحقيق أحلامها، يكون قد وفى بما عليه لمن أعانوه في بداياته. ينبغي أن تشعر بالسعادة.

قالت باصرار. «كلا بأية حال، انك لست عائلتي. التقينا بالأمس فحسب، ولا تدين لي بشيء.»

فسألها بخبث: «أكنت بهذا العناد في طفولتك؟»

«أجل.» كانت تكره التحدث عن طفولتها.

«لا بد أنك كنت صعبة المراس، إذن؟»

فقالت بمرارة: «أجل. كنت كذلك.»

لم يستطع المضي بتكهناته! بعد تشارلز، اللطيف، والسهل المراس، انتظر والداها سبع سنوات قبل انجابها، إذ أرادا التمتع بكل هنيهة يقضيانها مع تشارلز، قبل التفكير بإنجاب طفلهما التالي. كانت صدمتهما شديدة. جاء الوليد أنثى. والأسوأ... أنها... حمراء الشعر، ولها شخصيتها المستقلة... ليست مثل تشارلز في شيء، ولا مثلهما، كذلك.

«حدثني عن طفولتك.» قالت بعجلة، رغبة منها في تحويل مسار الحديث عن طفولتها.

راح يحدثها، مجبراً، عن طفولته السعيدة، إذ كان الإبن الرابع بين خمسة أولاد لطبيب البلدة وزوجته. شعرت ليزي

lilas.com/vb3 نور

بأنه يتحدث عن ماضيه بطلاقة. تكلم أخيراً بحرية عن نفسه، وقد تخلى عن الكلفة التي سادت أحاديثه على الغداء. ومضت عيناه إذ راح يصف سعادة طفولته... تسلقه للأشجار... ملاحقته للجداول... محاولاته للتدرب على الألعاب البهلوانية... ومعاركه مع أخوته... كان يتحدث بطلاقة ومرح، مضفياً على طفولته صوراً زاهية. ولم تتوقف ليزي حتى الآن عن التساؤل حول الكتب التي وضعها. لكنها شعرت أنها حتماً جيدة للغاية، وقد راعها مع ذلك، أن تؤمن بجودة ما قد أنجزه... ينبغي أن تطلع عليها لتكشف ذلك.

عندما شارفت الأمسية على الانتهاء، مدت يدها لتمسح بها شعر صدغيها. كانت مرهقة، وتحس بألم طفيف في رأسها..

قال بمكر: «أنت مصابة بصداع.»

«ليس تماماً. تزعجني ضفيرتي فحسب.» أجابت بمراوغة. إنها ترفض أن يقلق لأمرها، إذ كان هذا منافٍ لاتفاقهما.

نهض عن كرسيه، ودنا منها واقفاً وراءها. وأصابها الهلع إذ راح يفك ضفيرتها. كانت أصابعه تمشط خصلاتها، وتعيدها إلى ما كانت عليه. لم تكن، لحسن الحظ، في وضع يمكنها من رؤية صدره البادي عبر قميصه المفتوح، أو ساعديه المفتولتين.

«أحب شعرك على سجيته. لونه رائع.»

فهمست: «لقد حل الظلام. إنه يبدو أجمل في العتمة.»

«لونه رائع في النهار، أيضاً.»

liilas.com/vb3 نور

«هل كنت مجبراً على تناول الخضر في صغرك.» وعقدت ذراعيها.

«ما علاقة هذا بلون شعرك؟»

«الأطفال الذين يجبرون على تناول الملفوف ينشأون وهم يحبون الجزر.» قالت بفتور، وتمايلت محاولة إخفاء التوتر الذي اجتاحها.

فأجاب: «إنني أحب الملفوف.»

هذا كثير! انتصبت واقفة: «دعك من هذا!» قالت ذلك بابتسامة صفراء. «اعفني من قصائد غزلك بلون شعري! سمعت مثله سابقاً... فالناس يعتمدون أقصى درجات التملق عندما يكونون غير صادقين.»

راح يرمقها بنظرات حادة. كان ليخالفها رأيها في أية لحظة. ولكنها أصرت على صده إن وجّه إليها مديحاً آخر.

«إنني متعبة.» قالت بعجلة، ثم أدارت وجهها. «سأذهب للنوم. عمت مساء!»

دنا منها، وأمسك بكتفيها ثم جذبها نحوه. بحركة سريعة اقترب بوجهه من وجهها، وقبل أن تتمكن من الممانعة، أخذ يعانقها. ذعرت من طريقة تأثير عناقه ومن تجاوبه. وتساءلت ماذا عساها تفعل؟ هذا جنون مطبق! رفعت يديها لتبعده عنها، وراح رأسها يهتز بعنف.

«كفى!» صرخت، فكتم صرختها وقربها منه.

أرخى يديه وتركهما فوق كتفيها، وراح يحدق بها.

«ما الأمر؟ إنك ترغبين بهذا، مثلي...»

قالت باضطراب: «كلا أنت مخطىء.»

اعترض قائلاً: «لست مخطئاً. كنت بطريقة أو بأخرى تقولين ذلك مذ وصلت...»

واخترق اعتراضها سكون الليل. «كلا...»

«إذن قد تسرعت. كنت تفضلين أن أتريث. ولكنك شعرت بهذا منذ البداية. ما فائدة الانتظار لأيام... لأسابيع؟»

إنه إذن قد أدرك تأثيره عليها، وهذا ما جعله يظن أنها تسعى إليه.

تمتمت وهي ترتعش: «أنت مخطىء. لست أسعى لهذا. هذا غير معقول.»

ران صمت قصير. «هناك رجل آخر... أليس كذلك؟» سألها بقسوة.

هزت رأسها علامة الموافقة، ولكنها تجنبت نظراته. الكذب... كان بعيداً كل البعد عن طباع ليزي. ماذا يسعها غير ذلك؟ الآن هو ملم بالأمر. إنكار شعورها نحوه يُعد مضيعة للوقت، وكان عسيراً عليها إخفاءها.

أنزل يديه من فوق كتفيها. راحت عيناها ترمقان عضلات زنديه من تحت أهدابها المسبلة.

«عمت مساء.» همست وحثت الخطى نحو السلالم. وقد أحست بخيبة إذ التزم الصمت.

في اليوم التالي، استيقظت ليزي عند الفجر مسترجعة، بانزعاج، عناق الأمس. ما كان ينبغي أن يحدث هذا! حدثت نفسها بأنها لم تحاول تحريضه، مهما كان اقتناعه مغايراً لذلك. كانت في طريقها للرقاد عندما حاول إرغامها... ولكن ثمة شعوراً بالذنب جعلها توقف تفكيرها عند هذا الحد.

باغتها بعناقه لها... حتى من دون أن تنبئها نظراته بما يضمره، كان وكأنه يأمرها بأن تطيع، بغض النظر عن مدى تمنعها. ولكنه توقف، إذ صدته، وكان هنالك ثمة... تصلب يخفيه مظهره العابث. تملكها شعور بأنها لو حاولت صفعه، فإن الألم سيصيب أصابعها، وترتسم إمارات السخرية على وجهه. لا. لا يسعها إيلامه. فهي المخطئة لأنها شعرت، بنفسها تتجاوب مع عناقه.

ارتدت بسرعة بنطال الجينز، وقصدت المطبخ لإعداد القهوة، مرغمة نفسها على عدم التفكير بإدي. كان لديها ما تقوم به، على أية حال. تلك الطلبات! تلقت منها في يوم واحد ما كانت تأمله في أسبوع، وعليها أن تعمل على تسليمها اليوم. اتجهت نحو مشغلها بغية إعداد المزيد من القوالب.

كانت في المرآب، يداها في الجبس، وأفكارها تحاول إيجاد تبرير لعناقه. مجرد التفكير بالعناق جعل الدماء تتدفق في عروقها. أذهلها تجاوبها القوي الذي أبدته ليل أمس. ولكنها بدأت تعتاد مشاعرها الحسية الجديدة. هكذا تسير الأمور إذن! خطر لليزي، وهي في الرابعة والعشرين من عمرها، أنها قد فاتتها تجارب الحب الأولى. بينما، غالبية الناس يختبرونها قبل ذلك بأعوام عديدة.

لكنها أمضت سنوات المراهقة معزولة في مدرستها الداخلية بعيداً عن المغامرات الرومنسية، باستثناء ما كان يصلها عبر الروايات العاطفية، التي أدمنت على مطالعتها. كانت تتلهف للالتقاء بالحب، منذ دخولها المدرسة.

liilas.com/vb3 نور

إنما كانت تتوقع، بسذاجة، أن تكون قصة حبها من النوع الأسطوري. وقد تنمر صديقها مراراً لتجاهلها عناقه البريء. ولكن ليزي كانت قد عزمت على الوقوع في غرامه، قبل أن تستسلم لعناقه. انتظرت، وانتظر. ولكنها لم تقع في غرامه، رغم وسامته ولطفه الفائق. ولكن انتظاره طال، ويئس منها معلناً الأمر بعبارات جارحة.

تنهدت. ما كانت بحاجة لطبيب نفسي، ليعلن لها بأن حرمانها من العاطفة... لأنها ولدت ضمن عائلة حرمتها حبها... دفعها للسعي بإصرار إلى تحقيق رغبات قلبها عندما أصبحت في سن المراهقة.

أسفرت التجربة الثانية عن نتائج أسوأ. كانت قد اعتادت الخروج مع الشبان وارتياد الحفلات. وعندما تبلورت مشاعرها تجاه صديقها الثاني، رضيت بلقائه مرة ثانية، وثالثة وقد اعتبرته بحق فارس أحلامها.

سعت هذه المرة للاحتفاظ بحبها. أصغت لكل أحاديثه بشغف. كانت تبدي اهتماماً خاصاً بأعماله، وتشاركه في المطالعة، حتى أنها تعودت على الأطعمة النباتية رغم صعوبة هضم العدس. باختصار، حاولت جهدها تنمية هذه العاطفة الجياشة. وقد حققت مآربها، وكانت واثقة من ذلك. ولكن، كان كلما نما حبها له يزداد هو نفوراً.

والغريب أن هجره لها قد خلّف نوعاً من الارتياح لديها. وقد أدركت، مذ ذاك، كم كانت مخطئة. كانت قد اعتادت العيش بلا حب، وكانت سعيدة باكتفائها الذاتي، إلى أن بدأت تبحث عن «الفارس.» كان ممكناً أن تبقى محتفظة بكيانها وسعادتها، طالما أدارت ظهرها للحب.

حبها لعملها ملأ عليها حياتها، وها هي ذي أخيراً في مشغلها الخاص وأمامها هذه الكمية من الطلبات.

أين المشكلة إذن؟ وما سر انجذابها نحو رجل تعلم جيداً أنه لن يكون فارس أحلامها؟ هزت رأسها. قد تكون بلهاء إن سمحت لإدي هولت بالحؤول بينها وبين تحقيق أي شيء عملت لأجله. قررت، بحزم، تجاهل حيرتها من عناقه لها وأن تتصرف وكأن شيئاً لم يحدث.

أتتها الفرصة سريعاً لتحقق هدفها. فقد خرجت لتتناول قهوة الصباح، لتجده جالساً في الشرفة.

كان مسترخياً في كرسيه، ساقاه الطويلتان ممدّدتين أمامه، وبقايا إفطاره فوق الطاولة. كان يرتدي بنطال جينز مهلهلاً، وقميصاً يضاهيه قدماً، مرفوع الكمين. سكبت الشمس نورها فوق وجهه، فأغمض عينيه، وأرجع رأسه إلى الوراء.

«مرحباً...» قال برقة، مع أنه لم يبد أية حركة تنبىء عن شعوره باقترابها.

«مرحباً...» أجابت بشيء من النفور. إنه حتماً لا يملك أشعة أكس بالإضافة إلى مزاياه الأخرى.

«اجلسي...» قال وقد رفع أصابع يده لدعوتها.

جلست على حافة المقعد المقابل، وقالت: «لدقيقة واحدة فقط. إنني مشغولة جداً...»

«أخبرتني هذا بالأمس. حدثيني عن أمور أخرى.»

«ولكنه صحيح...»

«لا أشك بذلك. محادثاتنا باتت تافهة. لم لا تخبرينني عن حبيبك؟»

lilas.com/vb3

لحسن الحظ أن عينيه مغمضتان. اصطبغت وجنتاها معلنتين احباطها. يا لها من كاذبة تعيسة! انغمست في الكذب، وعليها الآن مداراة الأمر. تأجج في داخلها صراع مرير، وكم أملت ألا يبادر إلى سؤالها.

«إنه... أ... لطيف جداً.»

«أنت محظوظة. ما اسمه؟»

النجدة! اسمه...؟ اسمه...؟ خطر على بالها اسم واحد، إدوارد. وهي، إلى ذلك، لا تقوى على النطق به! تنهدت بارتياح وقد تذكرت اسماً آخراً...

همست: «تشارلز...»

راح يقرّب رأسه ببطء، وكأنه يشير إلى شعوره بالإنزعاج. «تشارلز؟ أليس هذا اسم أخيك أيضاً؟»

تأوهت قائلة: «أجل. ولكنك أخطأت السمع. اسمه ليس تشارلز. إنه ـ تشارلتون.»

أعاد رأسه إلى الوراء وقال: «وما عساه يكون اسم...؟ أهذا اسمه أم اسم عائلته؟»

«اسمه. أما اسمه الكامل فهو... تشارلتون هست...» تداركت الأمر سريعاً، ثم أكملت: «هسكت.» بكثير من الارتياح.

كان صامتاً.

«إنها عائلة عريقة.» أضافت ذلك للمزيد من السبك.

«إنه ينتمي إلى عائلة عريقة إذن، أليس كذلك؟»

«هذا صحيح. سلالة مميزة في الواقع.»

«مثل آل بريثويت، هه؟» كان تعليقاً غير متوقع. لاح فوق وجهه طيف ابتسامة. ابتسامة مبطنة، ولكنها حتماً مليئة بالسخرية.

فأجابت بخشونة: «ليس تماماً. لا.»

«أيعمل؟ أم أنه من الوجهاء، تشارلتون هذا؟»

«إنه يعمل.» قالت هذا، وراحت تجهد لإيجاد مهنة مناسبة له. لاح أمام عينيها طيف أخيها تشارلز، بحلته الأنيقة. «إنه ذو شأن في المدينة.» أضافت باقتناع. «ذو شأن هام جداً.»

«أهو عاطفي؟» قال وقد زادت ابتسامته.

هذا كثير! تراءى فجأة لليزي، أن عليها إنهاء المحادثة. إذ يبدو أنه سيواصل أسئلته المحرجة هذه.

«جداً!» قالت محتدمة، ثم دفعت كرسيها إلى الوراء بعنف. انتصبت واقفة. «والآن، أرجو المعذرة، لدي أعمال أؤديها.»

لم يجب. حتى أنه لم يرفع يده لتوديعها.

حدقت به. كان جامداً، وقد غابت عن محياه التعابير. كان حفيف الشجر هو الصوت الوحيد المسموع. ولسبب ما، كانت على يقين من أنه يضحك في داخله.

liilas.com/vb3
نور

الفصل الرابع

أحضر ساعي البريد كمية أخرى من الرسائل في ذلك اليوم واليوم التالي. ثم الذي تلاه. منعها عملها من مخاطبته. لا وقت للكلام. لا وقت للتنفس، في الحقيقة قدّرت ليزي أنها قد تعاني الجوع مع مردود عشرة طلبات أسبوعياً، بينما بعشرين طلباً تؤمن طعامها. أما بثلاثين طلباً فهي ستأكل، تبتسم، تستخدم عربتها وتبتاع سائلاً لغسل شعرها. أما مع خمسين طلباً، فستكون قادرة على مجابهة من يحاول إفساد مخططاتها.

مبدئياً، كان بوسعها الاستحمام بسائل غسل الشعر والعيش كأميرة. ولكن، ليس لديها الوقت. فهي ترتاب في كون الأميرات يقضين أوقاتهن [illegible] الطين، بأظافر مقصّفة، وقد تدلت أطراف قبعاتهن. تناولت طعامها وهي تعمل، وقد ابتاعت بضعة أرغفة وزبدة، وكمية كبيرة من جبنة الروكفور والمياه المعدنية. كان التأخير الوحيد بالنسبة لها، زياراتها لأليي قاصدة المصرف. تحول حلمها، مع الوقت، إلى كابوس.

كان إدي يخرج أحياناً لمراقبتها وهي منهمكة بأعمالها. وقد احتفظت برأسها منخفضاً، وراحت في عالم القوالب التي تعدها. كان يبدو هادئاً وهو يسترق النظر إلى المرآب، مسنداً كتفه إلى إطار الباب. نادراً ما كان يتكلم.

كانت تكره وقفته هذه، لأنها تثير اضطرابها، وتجعل أصابعها المرنة ترتعش تحت وقع نظراته الثاقبة.

وصل يوماً حاملاً رزمة بريدية إليها، فوضعتها جانباً. لقد فتر حماسها لفتح الطرود. كانت في الحقيقة تمنّي النفس بالحصول على فترة راحة. فهي تعمل من الفجر وحتى العاشرة ليلاً، وقد اقتصرت اهتماماتها الأخرى على الإغتسال والنوم.

«ألا تملين القيام بالعمل نفسه دوماً؟» سألها، بينما جعل أصبعه يسير على طول جانب الآنية الفخارية.

لحسن الحظ أنه لم يفعل هذا بها! «أجل.» قالت موافقة، وهي تصطنع ابتسامة. «بالطبع.»

نظر إليها بتمعن قبل أن يجول في الداخل ويتقدم ليتفحص الأتون. «متى ستصهرين كل هذا؟»

«لا تقلق. سأعاين عداد الكهرباء، وأدفع لك ما يتوجب علي. هذه الرؤوس تحتاج لصهر قليل نسبياً، أي أنها ستغدو مسامية بعض الشيء، لكنها ستصبح رائعة مع الأخذ بالاعتبار ما سيوضع فوقها من سماد رطب وما سيزرع فيها من نباتات خضراء متسلقة.»

نظر إليها وقال: «إنها جميلة هكذا، ولكنها ستبدو حتماً أكثر روعة عندما يوضع فوقها ذلك «الشعر» من النباتات المتسلقة الخضراء.»

«شكراً.» ابتسمت مجدداً، ثم سارت لتنضم إليه. من الأسلم التحدث عن الأعمال. «الورود هي أجمل ما في هذا العمل، انظر...» عرضت أمامه شكلاً مصمماً بصورة رائعة، سوف تزرع الزهور فيه لتشكل إكليلاً فوق الشعر

liilas.com/vb3 نور

المخضوضر، وعقداً من الزهور الرائعة حول عنق الآنية.

أفرط إدي في إبداء إعجابه، ثم سألها: «لم إذن أتيت بهذه الآلة إلى جنوب فرنسا؟»

«لإنجاز أعمالي، حتماً. هذه الأواني هي زادي. ما يهمني هو صنع قطع مميزة تصهر مرات عديدة، وكنت سأجد بالطبع صعوبة كبيرة في تسويقها.»

قال برنة يشوبها المرح: «فهمت ومتى تنتهين من إعداد الكمية التي تتيح لك الانطلاق في أعمالك؟»

تمتمت وهي تكتم ضحكتها. «أحاول جاهدة إنجاز الطلبات التي لدي، وأسعى لأن تكون الدفعة الأولى جاهزة للتسليم في أقرب وقت.»

فسألها: «وفي حال عجزت عن ذلك؟»

«سأضطر عند ذاك، للعمل طوال ستة أشهر.» حاولت إضفاء بعض التفاؤل على صوتها. كان من شأن الأمور أن تسير بنجاح.

«كل هذا لن يعفيك من مشاركتي في تناول الطعام...»

«لا وقت لدي لتناول الطعام، في الواقع.»

رفع يديه وفرك بهما خديه، ثم عقد أصابعه وراء عنقه وقال بلهجة حزينة: «أوه، ليزي...»

قطبت جبينها وقالت: «وهذا ماذا عساه يعني؟»

«معناه أنك كنت تجهلين كيفية إدارة الأعمال.»

«كيف تجرؤ...؟»

«لا تجهدي نفسك بالجدال، يا ليزي! الغضب يسبب الإرهاق. وفري قواك لإنجاز عملك هذا...» قال ذلك وهو يحدّق بالرزمة التي أحضرها.

حدقت به، ثم استدارت لتلتقط قطعة من الطين وراحت تضرب عليها بقبضتها.

«تفجير غضبك في هذا العمل لن يكون مفيداً.»

أحكمت قبضتها فوق الطين. وهي تقول بحنق: «أحاول التخلص من الأبخرة المتصاعدة على ما يبدو. ينبغي أن أفعل هذا وإلا تفجرت القطع الموجودة في الأتون.»

ضحك برقة. «لن تتفحصي الرسائل إذن؟»

«أينبغي أن أفعل؟ أهذه هي القاعدة الأولى في إدارة الأعمال؟»

«ظننت أنك ربما تتلهفين للتأكد من وجود رسالة من... تشارلتون هسكت؟»

أجابت بتحد وقد احتقنت وجنتاها. «أثمة رسائل شخصية؟»

«أجل. من السيدة آنا ستيفنس. وضعت إسمها وعنوانها على الظرف. بعثت بصور أطفال في المرة الأخيرة. وقعت في طبقك، أتذكرين؟»

قالت بأسى وراحت تعض شفتها: «تشارلتون قد رحل.»

«إلى حيث لا تصل الرسائل، أهذا ما تعنين؟»

«على ما يبدو، نعم.»

«يعمل في السمسرة العقارية في بلاد الأمازون، هه؟»

«شيء من هذا القبيل. أظن لا شأن لك بالأمر.»

«لِمَ لَمْ ترحلي معه، يا ليزي؟ إنني أتصورك تجذفين قاربه، بينما يعمد هو إلى إبعاد البعوض بقبعته الواسعة.»

فتمتمت ببرود: «لا داعي لإقحام أنفسنا في شؤون الآخرين.»

liilas.com/vb3 نور

ترك عينيه تطوفان بها. كانت ترتدي قميصاً قطنياً أبيض، بالإضافة إلى سروالها القصير. بئس الحظ. طأطأت رأسها خجلاً. هذه المرة، احمرت كتفاها. اللعنة!

قال بخشونة: «يا للعجب... يمكن للناس أن يقيموا علاقات حب مع أناس بعيدين عن أعينهم. أما أنت فلا، لست من هذا النوع أبداً.»

أحست بانهيار تام. لقد كذبت كثيراً، ولكن هذا لم يعد يجدي. كان واضحاً أنه عالم بخفايا الأمور، ولكنها لن ترضخ. قابلت نظرته بتحد، وقد زمت شفتيها.

«الأمر كذلك.» أضاف وقد مال برأسه، مقرباً المسافة بينهما. «فلنر ما بوسعي تقديمه لك.»

معصماه فوق كتفيها، أحست بخشونة راحتي يديه فوق بشرتها.

كاد قلبها أن يتوقف عن خفقانه، وخشيت أن تصطك أسنانها. كم ستطول مقاومتها؟ وجدت نفسها منساقة وراء خيالها، فأخذت تحلم بنفسها وقد استسلمت... وحاولت جاهدة اعتصار ما أمكنها من الألم، وهي تتخيل أنه يطردها، مسترجعاً وحدته. لذلك كانت مجبرة على مواصلة المقاومة!

المشاعر الحسية، بالنسبة لليزي، هي لغة الحب. كانت مدركة تمام الإدراك، أنها لو أقامت علاقة معه مرة، فستقع في غرامه لا محالة. يا للسخرية! لقد عجزت سابقاً عن تفهم مشاعر الرجال الذين عاملوها بلطف، وكانوا على استعداد لمبادلتها الحب، فهي هنا تحارب نفسها وتقاومها حتى لا تقدم الحب إلى رجل لا يزيد اهتمامه بها عن اهتمامه بأي

شخص عادي. ومع ذلك لا يسعها التخلص من تأثير لمسته.

«ليزي؟»

«نعم؟»

«أنت متعبة.»

«يا لبصيرتك الثاقبة!» جاء صوتها خفيضاً وضعيفاً.

«دعيني أصطحبك إلى غرفتك. أعرف وسيلة ناجحة لإزالة آلام النهار.»

«تناولت حبة أسبيرين، شكراً على أية حال.»

ضمها بين يديه، فتنشقت شذا رجولته، وشعرت بالسعادة.

«تعالي معي. سوف نلهو، سأغلق الستائر وأدع النور ينسكب فوقك كخطوط نمر.»

«لا.» اختنقت الكلمة في حلقها، فيما مشاعرها تحثها على قول النقيض.

«لا أظن تشارلتون قد يمانع، إن كان هذا ما يمنعك.» كان صوته ينضح بنبرة ساخرة.

على الأقل، لم يتسن له رؤية جفنيها المغمضتين وهي في وضعها هذا. همست بحنق... «لا تحاول ذلك!»

وتنهدا وكان هذا بمثابة دعوة حسية لها. إن واقع سعيه لإرضاء نزواته فقط، كان حافزاً لها للانعتاق من أسرها.

«دعني وشأني!» هتفت، ثم استدارت سريعاً وجرت متوارية داخل المنزل.

تركها وشأنها؛ بمعنى أنه لم يعاود لمسها، ولم يأت على ذكر تشارلتون، أو يحاول مساعدتها على الاسترخاء،

liilas.com/vb3

لينسكب النور فوقها. ولكنه ما زال موجوداً هناك، بالطبع. ما زال يدعوها لتناول الشراب في الشرفة، وما انفك يوزع ابتساماته المميزة تلك. وهو مواظب على إحضار رسائلها، والإتكاء على حافة الباب، ومراقبتها وهي تعمل. كان يحدثها باقتضاب. مع ذلك، ما أسرّ إليها بشيء عن نفسه. كانت ترفع عينيها لتلقى نظرته الجامدة، نظرته هذه، وقد كانت وسيلة تمويه للمعاني، باتت تشكل سداً منيعاً بينهما.

ظلت تعاني، لأيام ثلاثة، من الانقلاب المفاجيء في معاملة إدي لها. جلست في الليلة الثالثة تتناول العشاء وقد أسندت رأسها بيدها، ورفعت باليد الأخرى الشوكة، ليغلبها النعاس.

استيقظت لتجد نفسها بين ذراعي إدي.

«إنني أحملك إلى السرير.» قال وقد ألصق رأسه برأسها.

لم يسعفها الكلام وانتابها الارتباك، ولكنها سرعان ما تبينت أنه لم يقصد ما ظنته. دفنت وجهها في كتفه لتخفي حمرة خجلها. رباه، لم يكن لهذا أن يحدث. أبقت رأسها فوق صدره، متظاهرة بالنوم بينما حملها إلى الغرفة ووضعها على السرير برفق. خرج وأغلق الباب وراءه بهدوء، فاستعانت بدموعها. تشوشت أفكارها إذ راودتها فكرة إقامة علاقة معه، ولكن، عندما استشارت عقلها أدركت تماماً أن ذلك سيؤدي حتماً إلى تحطيم قلبها.

استيقظ باكراً على غير عادته، مما أثار دهشتها. سارعت إلى دخول مشغلها، وانهمكت في قوالبها. وسرعان ما وجدته إلى جانبها بعد أقل من نصف ساعة.

قال لها: «أريني كيف تصنعين هذا.»

«حسناً، ولكن، لم لا تحاول التعلم بينما أتولى الشرح؟»

أفسحت له مكانها، فراح يصب السائل حول الرأس الذي بدأت تصنعه.

قالت: حركه بلطف، وإلاّ ظهرت فقاقيع الهواء.»

راحت تراقب تعامله مع الجبس بيديه القويتين، وقد أحنى رأسه، وتوقفت عند ذراعيه المفتولتين اللتين لوحتهما الشمس. احمرت وجنتاها كعادتها كلما أمعنت فيه النظر. طفقت تناجي نفسها؛ كيف تهواه بهذا القدر وهي تعلم أن آمالها محكوم عليها بالإعدام مسبقاً؟

«إنه لأمر عسير.» قال معلقاً وهو ينظر إلى الجبس الرطب فوق يديه.

«مم. تسهل إزالته عن اليدين.» كان مفروضاً أن تطلب إليه التوقف منذ عدة دقائق، لأن القالب قد يفسد، ولكنها، للمرة الأولى، تشعر بأن عملها الثمين لم يعد ذا قيمة!

وقف وأمسك بيدها.

خرجت عن طورها، وسألته بشراسة: «ماذا تفعل؟» ثم راحت تحدق بكفه الضخمة، وقد احتوت يدها.

ومضت عيناه، وقال بهدوء: «لا بأس، لن يظن الناس بأننا مرتبطان لمجرد أن أحدنا ممسك بيد الآخر...»

رفضت أن تجاريه في مزاحه وتمتمت: «أنت من يمسك بيدي، والفرق كبير.»

تنهد. «لست في وارد قراءة كفك، ليزي، إن كان هذا ما يخيفك. لن أحاول معرفة ماضيك، حاضرك، أو مستقبلك من

liilas.com/vb3

تلك الخطوط التي يغمرها الطين. أسرارك محفوظة، فلا داعي لأن تقلقي.»

سار عدة خطوات محاولاً جرها معه. ولكنها حاولت التملص.

قال بقوة: «هيا. لسوء الحظ، لا توجد حلقة في أنفك، ولا أملك سوى جذبك بيدك، ولكنني أنوي أخذك إلى الشرفة لتناول طعام الإفطار، المعد على الطاولة.»

اقترب بوجهه منها وهما جالسان إلى الطاولة، واضعاً يده فوق خده.

سألها: «لِمَ اخترت منزلي لتنفذي فيه عملية انتحارك؟»

«إنه ليس منزلك.»

«إذن، أنت لا تنكرين الأمر! تعترفين بأنك تقضين على نفسك بالعمل المضني.»

«لا تكن سخيفاً. إنك تعلم سبب قيامي بالعمل المرهق.»

«أعلم أنك لا تنوين إيجاد مخرج لنفسك من الحلقة التي تدورين فيها. بدأت أرتاب بكونك ذات ميول ماسوشية... منذ بادرت إلى نقل عربتك عندما احتجزتني، وقصدت المدينة لشراء بعض الأطعمة.

قال وهو يتنهد بعمق: «سيكلوبس. الوحش ذو العين الواحدة. ينبغي القضاء على مصمم تابلوه السيارات، كائناً من يكن، وأفضل أن أقضي عليه بنفسي. الماسوشي وحده قد يدفع ثمناً باهظاً لشراء عربة ڤان تجلب له المتاعب كلما جلس خلف المقود.»

أشاحت بنظرها عنه. كان يجلس باسترخاء. أساءها انتقاده اللاذع لعملها المضني ـ قد يكون محقاً لأنه أضطر

لحملها إلى غرفتها لشدة تعبها الليلة الماضية. إنما أن ينتقد عربتها! إنها الوحيدة التي تملك حق ذلك!

«إنه شأني الخاص و...»

«وستتولينه بنفسك. وإلاَّ تولى هو أمرك، وهذا ما يبدو لي. لكنني لست مستعداً لالتقاط القطع المتناثرة متى أطاحت بك.»

فتمتمت: «سوف أعلن عن حاجتي لمساعدين.» كانت تتوق لذلك في الواقع ولكنها كانت تخشى أن يتسبب وجود المساعدين في إعاقة عمل إدي.

«لا تقولي لي إنك ستحظين بعقد مع باريس سوار وتنالين مئتين وأربعين ألف طلب!»

لم تتمكن من كتم ضحكتها. «لا، لن أفعل. ولا تعتبر ضحكتي علامة الموافقة. ربما تعجبني روحك المرحة، إنما هذا لا يعطيك حق اتخاذ القرارات بدلاً مني.»

ابتسم، ثم هز كتفيه متنهداً: «أكملي تناول فطورك. ثم اجلبي لوازم السباحة. إن كانت الوسيلة الوحيدة للحؤول دون انهيارك هي في أخذي يوم إجازة، فسوف أفعل. سنقوم... بنزهة.»

نظرت إليه بارتياب. «لا. لن أدعك تفعل. وعلى أية حال، فإنني جد مشغولة!»

لم يجد جواباً. ولكنه عقد ذراعيه، وراح يرمقها بنظرات تحمل معاني التصميم والعزم.

رمقته بنظرة مدافعة، قبل التوجه إلى الطابق العلوي لارتداء ملابس البحر.

سلكا درباً جانبية بمحاذاة جبل خلف مون آبري.

liilas.com/vb3

وبادر يسألها: «أخبريني عن التصميم الذي أعددته للمنزل.»

فقالت: «الأمر لا يستحق الشرح. لقد أعددته عندما حضرت لقضاء عطلة الصيف مع جدتي وكنت يومذاك في الرابعة عشرة من عمري. كانت جدتي رائعة المزاج ذلك العام. وكان جدي قد مضى في إحدى رحلاته، ولم تشعر هي بالراحة لغيابه. كان صيفاً مملاً،لذا قررت إعداد التصميم لملء فراغي.»

قطب حاجبيه قائلاً: «ما الذي دفعك للقيام بعمل، وأنت في الرابعة عشرة، بعيداً كل البعد عن اهتمامات الأولاد؟»

ابتسمت بامتعاض. «حسناً، لم يكن في نيتي صنع تصميم للمنزل بمعنى الكلمة. بدأ الأمر عندما صنعت قطع قرميد من التراب عندما كنت أجول في الجوار. أدركت، إذ نظرت إلى المنزل، أنه صنع من القطع التي أمامي نفسها تقريباً. لذا انكببت على صنع المئات من قطع القرميد وبأشكال مختلفة، ثم تركتها لتجف في الشمس. ربما...» أضافت بتساؤل: «.... هكذا ولد شغفي بالجبس. ما رأيك؟»

هز كتفيه. «أنت أدرى، هل أنهيتِ تصميم المنزل؟»

«أجل. وصنعت قطعاً من البلاط أيضاً. ثم أعددت مئات الرسوم للمفروشات وللغرف الخارجية، ليكون الأمر متكاملاً.»

«لا يعقل أنك فعلت هذا في ثمانية أسابيع؟»

«لا. أخذت جدتي على عاتقها مهمة نقله إلى انكلترا. كان الأمر رائعاً أكثر مما يدركه الخيال.»

قال بلهجة حماس: «رائع! وأعددت المفروشات أيضاً؟»

«معظمها. وقد صنعت عدة نبتات للحديقة. كان لدينا أوقات فراغ كثيرة في المدرسة.» قالت معللة الأمر.

«أما زلت تحتفظين به؟»

«لا. عندما عدت إلى المنزل في عطلة الفصح اكتشفت... أنه اختفى.»

«اختفى.»

«أجل. حصل سوء تفاهم.» قالت بخفة. «اعتقدت أمي أنني انتهيت منه.»

«انتهيت منه؟ ولكن كان بوسعها أن ترى...؟»

«كان ما حصل شيئاً مرعباً. حجمه أخذ أكثر من نصف مساحة غرفتي. خاصة عندما بنيت القاعدة المربعة في عطلة الميلاد حيث يتسنى لي إعداد الحدائق في الشرفة.

«كيف عساك...؟»

«شعرت بالخيبة يومذاك، إنما المسألة طواها الزمن. وكنت سأملّه مع مضي الوقت.» توقفت عن الكلام سريعاً وقبل أن يختنق صوتها.

التزم إدي الصمت أيضاً. أشار بيده عالياً وقال: «سنتوقف هنا...»

كان منزلاً صغيراً، تحيط به أشجار وارفة. ألقى إدي بنفسه فوق العشب الأخضر.

«حان وقت الراحة.» قال ذلك مع أنه، بخلافها، لم يكن يلهث من عناء السير.

جلست بجانبه، وراحت تتأمل المكان، ثم سألته: «أيملك أحدهم هذا المنزل؟»

liilas.com/vb3 نور

هز رأسه قائلاً: «لا. ولكن ثمة راع يستخدمه عندما يأتي بقطيعه إلى هذه المنحدرات. مع أنه صالح للسكن، فهو نادراً ما يُستعمل. هذا النوع من الأبنية التي تقام في الجبال للرعيان والمسافرين التائهين. قد لا تكون الهضبة الوسطى جبال الألب، ولكنها غدّارة في الشتاء.»

«أهذا هو المكان حيث سنمضي نزهتنا؟ المشهد رائع من هنا.»

«لا. هناك موقع أروع على بعد ميل واحد. انتظري لتري بعينيك.»

لم يخبرها المزيد، مما أغاظها، ولكنهما إذ وصلا، شعرت بالسعادة لأنه لم يفعل. الكلمات ما كانت لتفي المكان حقه، بل كان من شأنها إفساد روعته، ابتداء... بغابة أشجار صغيرة، وانتهاء بجدول ماء يتدفق فيه شلال غزير.

هتفت: «مدهش!».

ربت فوق كتفها، وقال: «لا بأس، هه؟ إن نزهتنا هذه لن تكتمل إلا ببركة للسباحة.»

كان المشهد رائعاً. السماء زرقاء صافية، والمياه تتلألأ كالفضة قبالتهما. تمددا فوق العشب، وتبادلا أحاديث عابرة. ذهبت الفرحة بكل ما تعانيه ليزي من إرهاق. إنه روض حقاً. إدي كان اليوم مختلفاً. أقل... تصلباً... وكأنه ألغى حاجزاً بينهما.

مع ذلك، فالحواجز الباقية كثيرة، وعلى رأسها قضية المنزل. كانت تنوي عند كل زيارة لها إلى المدينة، أن تتصل بمحام. لكن كثرة انشغالها حالت دون ذلك. كان بوسعها أن تبعث له برسالة... إلا أن كتابتها الفرنسية ركيكة، إضافة

إلى إحساسها المريع بالإرهاق. رمقته بنظرة، وخطر لها أن تثير الموضوع فتعتذر عن تأخرها. فضلت ألا تفعل، فقد يفسد هذا جلستهما الرائعة...

تراءى لها، أن تبادر إلى سؤاله عن عمله بدلاً من ذلك.

«لا بد أن عمل المراسل الصحفي فيه متعة كافية.»

تجهم وجهه. «في البداية، أجل. إنما معايشة القهر لوقت طويل يدمر النفس. تحولت تدريجياً إلى آلة صماء، فأحسست بأنني أفقد قدرتي على الحس... والاهتمام. استسلمت في النهاية لنزعتي إلى الكتابة. لكن المشكلة كمنت في أن الرواية التي كانت تدور في خلدي إتسمت بالأمل لا اليأس. كان من العبث أن أكتب قصة عادية وسط هذا الكم الهائل من الهموم والمتاعب التي تحيط بي.

«لذا أيقنت أنني بحاجة للابتعاد عن عالم المآسي ذاك، إذا كنت أرغب في وضع ذلك الكتاب. ومن هنا جاء اتفاقي مع جدك.»

نقلت ليزي بصرها نحو العشب النضر، متطلعة إليه. كانت عيناه معلقتين في السماء. «وهل أرضاك الكتاب؟ أكان يتحدث عن الأمل؟»

رفع رأسه. «كان موضوعه عن الأمل. ولكن مسألة إرضائي، حسناً، هل اتفقت وشعرت يوماً بالاكتفاء الذاتي التام بعد صنع إحدى الأواني الفخارية؟ إنها مشكلة تجسيد ما يجول بداخلنا، لا مجال للكمال.» توقف متأملاً... ثم أردف: «ومع ذلك... أسعدني الكتاب. لم يكن كاملاً، بالطبع، ولكنني قدمت أفضل ما لدي. كان حافزاً لي على المثابرة، فأنجزت كتابي الثالث والرابع... لو أنني اعتمدت الكمال

لفقدت رواياتي نكهتها. ربما هذه سنّة الحياة... رغبة لا نهاية لها في متابعة المرء لما توصل إليه... وتحسينه... وفي النهاية، نظرة إلى الوراء ويقرر أنه في كل ذلك الصراع يكمن الكمال الذي لطالما اعتقد المرء أنه سراب.»

ابتسمت ليزي باعجاب، وتمتمت: «أنت حكيم جداً.» ثم أضافت لإغاظته: «ألا تظن أنه بوسعك تسوية متاعب الحياة، الكون وكل ما فيه، أليس كذلك، يا إدي؟»

أجابها بقبضة عشب رماها في وجهها قبل أن يقف ويضرب الأرض بحذائه ويصرخ: «أسابقك حتى البحيرة، قبل تناول الغداء!»

كانت المياه صافية وباردة. والطعام، عبارة عن خبز وجبن وبعض السلطة، بالإضافة إلى شراب، ومياه معدنية، ولكنها كانت من أفضل الوجبات. تمددا في الظل لفترة، فتحت بعدها ليزي عينيها لتقترح عليه النزول في الماء.

جمعت شعرها فوق رأسها، وخلعت ملابسها، لتظهر ثوب السباحة الأخضر. ألقت نظرة خجول على إدي، وهي مضطربة أمامه، لكنه كان منشغلاً بخلع قميصه. أسرعت نحو الماء، متجنبة النظر إليه. كانت تتجنب رؤية انجذابه إلى بشرتها البضة، وقد غطى النمش كتفيها. كانت دوماً تبدو ممتقعة الوجة أثناء الاستحمام. غطست في المياه، وراحت ترفسها بقدميها بحركة آلية.

«المياه باردة، هه؟» قال إدي ضاحكاً، وهو يسبح بمحاذاتها.

«إنها مجلدة!» هتفت، محاولة التقاط أنفاسها. «لماذا لم تحذرني؟»

ضحك ثم راح يغرف المياه بيديه وينثرها في وجهها. «لقد لمست المياه قبل الغداء. ظننتك تعلمين!»

«اعتقدت أنه لا بد أن الشمس قد جعلت مياه الضفة المظللة دافئة.» أجابت وهي ترشقه بالماء بدورها. «منعك خبثك، مع ذلك، من إنذاري.»

أجابها بجرعات ماء راح يرميها عالياً لتتساقط فوقها كذرات من الفضة.

اللعب هو الوسيلة الفضلى لمقاومة برودة المياه. وسرعان ما راحا يمرحان ويلهوان كطفلين صغيرين. اصطحبها إدي بعد فترة إلى عمق البحيرة، لتسبح عند الشلال.

«اقتربي.» قال بإصرار إذ تمنعت. «لا يوجد ما هو أفضل. ثقي بي.»

شعرت برعشة خفيفة وقد غاصت في المياه، وسرعان ما تأقلمت مع البرودة؛ ثم اندفعت إلى مجاراته فسبحت إلى جانبه وقطعا معاً مسافة طويلة، وصلا بعدها إلى شاطىء صغير تظلله أشجار كثيفة. خرج إدي من الماء، والتقط حبلاً سميكاً، ثم عمد إلى تعليقه ما بين الأغصان المتشابكة.

قال: «انظري، الأطفال هنا يمارسون هذا طوال فصل الصيف، هم أشبه بطرزان.» تسلق بعدها جذعاً ضخماً وهو يمسك الحبل بيده، ثم ألقى بنفسه وسط خضم المياه المتدفقة من الشلال. تناثر من حوله رذاذ الماء، واستمر على هذه الحال إلى أن استقر فوق أحد الصخور، حيث قذف إليها بالحبل هاتفاً: «دورك الآن!»

ارتعدت خوفاً وقد وقفت على الجذع الدافىء. كانت

liilas.com/vb3

المسافة طويلة، وقد بدت الضفة صغيرة من بعيد. ماذا لو هوت وجرفتها مياه الشلال الدافقة؟ إنما أعصابها لم تخنها قط، خاصة متى كان الأمر يشوبه التحدي. أغمضت عينيها وتنفست بعمق ثم قفزت. أمسك بها على الجهة المقابلة ولف ذراعه برفق حول خصرها.

التفتت إليه وعيناها مشرقتان وهتفت: «أمر مشوق للغاية.»

تفرس في وجهها بعينين مرتبكتين ثم ترك خصرها فجأة، وابتعد مرتفعاً في الهواء بخفة، ليعود ويغوص في عمق المياه.

اختفى فجأة، وقد لمحته يتوارى سريعاً. أدركت أنه غاص في الماء عائداً إلى الشاطىء خوفاً من تجاوبه معها. تشبثت بالحبل لتقفز من جديد إلى الشاطىء الصغير وتهبط على الجهة المقابلة.

كان قد وصل إلى الشاطىء، وجلس على العشب حيث لوّح لها محيياً. رفعت يدها رداً على تحيته، محاولة التظاهر بالانشراح، بينما اعتمل في داخلها صراع مرير.

رغم محاولاته السابقة لإقناعها بإقامة علاقة معه، لم تعد المسائل الحسية تطرح بينهما. فقد أيقنت أنه أزال هذه الفكرة من رأسه، مذ أدرك أن جسدها خارج اللعبة التي يمارسانها، ولعله إحدى تلك... العراقيل التي وضعتها أمامه.

جل مايتمناه هو رحيلها المفاجىء وبالشكل الذي ظهرت به. فتضرعت لأن يكون هذا دليلاً على أنها ليست مجرد أنثى بالنسبة إليه. لم تكن تدع الأوهام تسيطر عليها

وتقنعها بأنه يتمناها لشخصها، بل اعتبرت نفسها مجرد دخيلة لا أكثر. فهل يعقل أنه يريدها فعلاً؟ تنهدت. لا ينبغي أن تخادع نفسها، فتجاوبه كان عابراً، وهذا ما حدا به إلى مغادرة الصخرة سريعاً، وقبل حدوث ما لا يرضيه.

وجدت نفسها فجأة تقيم جسدها، كان متناسقاً نحيفاً نحيل الوسط أما ساقاها فقد بدتا متناسقتين بلباس البحر؛ كل هذا جعلها تميل إلى الاعتقاد بأنها تعكس صورة واضحة للأنثى المغرية. إنها تود لو تعلم كنه أحاسيسه لحظة تعمد العودة إلى المياه، وهو قد تمكن من تفادي التجربة وهذا ما يبعث على الارتياح. ربما كان الأمر، مجرد تأثر عابر لمرآها محاطة بالرذاذ، وهي قد أزمعت على تجاهل الأمر، فسبحت عائدة إليه.

جلست على العشب بجانبه محتفظة بجو من المرح، وقد لامست ركبتاها صدرها. انصرفت إلى قضم تفاحة، وكلها رغبة في تبديل لباسها المبلل. لم يكن معهما مناشف أو أي شيء تتستر وراءه أثناء تبديلها لثيابها، وأدركت أنها لو ارتدت قميصها فوق لباس البحر، فسوف تبتلّ ويتطلب تجفيفها وقتاً طويلاً. لا تملك إذن سوى أن تنتظر ريثما يجف لباسها، معتمدة في ذلك على الحر الشديد رغم وجودهما في الظل.

تمدد على بطنه، وقد أدار وجهه نحوها، قال فجأة: «بدأت تحترقين، ليزي.»

«كلا! لقد أزالت المياه، المستحضر الذي وضعته.» أجابت: «لقد مكثنا فترة طويلة في الماء، وقد تعرضت للشمس مطولاً.» كانت تشعر بالتوتر الذي ساد الجو

بينهما، فشاغلت نفسها بالبحث عن المستحضر في حقيبتها.

جلس على ركبتيه، وراح ينزع السدادة قبل أن يتسنى لها معارضته، ثم بادرها: «سأمسح كتفيك ومؤخر عنقك أولاً. فتأثير الشمس على هذين الموضعين يكون سيئاً... ربما لأنهما، عادة، يكونان مغطيين بواسطة شعرك ولا سبيل لأن يعتادا على التعرض للشمس لفترة طويلة.»

انتفضت، إذ كان هذا بعيداً عن تفكيرها، وخطر لها أنها لو حاولت تولي المهمة بنفسها فسينتهي بها الأمر إلى الالتصاق به.

مسح بالمستحضر البارد مؤخر عنقها، وراح يدلكه بلطف، كان يسري في دمائها فيخدر أعصابها. وجدت نفسها تسترجع ذكرى عناقه لها. ذلك العناق الذي لم يتكرر... ارتفعت يداه لتمسكا كتفيها ببعض القسوة أولاً، ثم ارتخت فجأة، وأخذ يعانقها. تنبه عقلها وتدحرجت فوق العشب لتستلقي بعيداً عنه وقد خبأت وجهها بين يديها. حاولت جاهدة تهدئة أنفاسها اللاهثة وكتم الأنات الخافتة التي أفلتت رغماً عنها.

«إنني آسفة.» همست. «آسفة، إدي، إنما لا يجب...» ثم شعرت فجأة برغبة شديدة للارتماء بين أحضانه مجدداً. لماذا شعرت بهذا النفور فجأة؟ كل ما عليه هو أن يتفوه بالكلمة...

دنا منها، وراح يداعب شعرها. حاول استرداد أنفاسه، ولكن صوته جاء متقطعاً: «ليزي...» ثم ردد خلال أنفاسه المتقطعة: «لم لا؟ لم لا؟»

«لا...» قالت بهمس مكتوم. «إنني آسفة.»

ماذا تنتظر أن يقول؟ أن يقر باهتمامه لأمرها؟ إنها ليست بهذا الغباء! لا، ثمة إشارة قد تفي بالغرض... أو تلميح ما... بأنه يريدها هي... هي بشكل خاص ليس لمجرد أنها أنثى، أو لأنه صدف وجودها معه...

لا يسعها إيجاد كلمات تفي هذا السحر حقه... إنها تتوق إلى تلك الإيماءة التي ستعيدها إلى أحضانه.

أطلق زفرة حارة، ثم قال بحدة: «لا تعتذري! إنني لا أُرغم النساء على إقامة علاقة معي!»

«ولكنني آسفة.» رددت بإصرار، وراحت تتأمل أصابعها تفادياً لنظراته، ولكنه أشاح بوجهه عنها.

كان الصمت سيد الموقف. ضاقت عينا إدي وقد انشغل عنها بتأمل المياه. ثم قطع الصمت بصوت هادئ: «هلا أخبرتني ما الأمر؟»

«أنا... لا أرغب بإقامة علاقة معك.» تمتمت بضعف.

فأجاب بحزم: «غير صحيح، وكلانا نعلم ذلك!»

لم تعد قادرة على معارضته، الآن وقد خانتها الكلمات، فعجزت عن التعبير.

«قد تكون جذاباً، ولكنني... لا... أود إقامة علاقة معك، يا إدي.»

«إنك ترضين القيام بذلك بعد الزواج؟ أهذا ما تعنينه؟»

احتفظت بصمتها. لم تستطع إخباره عما تعنيه لها المشاعر الحسية. وعن مدى معاناتها من كبت لمشاعرها... وكم تتمنى أن يبادلها الحب... واخيبتاه! إن إدي تهمه وحدته فحسب...

liilas.com/vb3

تجهم وجهه، وراح ينظر إلى يديه ثم سألها بفظاظة: «ألم يدخل حياتك رجل ما... ألم تمري بتجربة مريرة؟»

قالت بضعف وهي تهز رأسها: «لا. لا شيء من هذا القبيل، صدقني.»

«إذن لِمَ لا؟»

لِمَ لا؟ إذن ما زال يعتقد أن علاقة عابرة هي نتيجة طبيعية للمشاركة في المسكن. انتصبت واقفة واتجهت نحو الماء، مديرة ظهرها إليه.

أخيراً قالت: «سأخبرك عن سبب عدم رغبتي بك، مهما تكن الظروف. لا مجال للشرح ولا داعي لكثرة الأسئلة. لا أسرار. الأمر بكل بساطة أنني لا أريدك. ما يهمني هو عملي... ومنزلي.» أردفت بعد تفكير مرير.

توقفت عن الكلام، قبل أن يفضحها صوتها. كان إدي صامتاً أيضاً. راح يجمع حوائجه استعداداً للرحيل. وأرغمت نفسها على مجاراته. تباً!

كان يوماً رائعاً، ولكنه قد أفسد الآن. سارت بجانبه صامتة. لم تتمكن من محادثته، أما إدي فكان جامداً كالصخر.

الفصل الخامس

لم يتناول إدي عشاءه في مون آبري تلك الليلة. لدى عودتهما ـ يشاركهما الصمت المطبق ـ دخل المطبخ وأعد لها القهوة وكأنه يثبت لها بأن شيئاً بينهما لم يتبدل. ولكن خلاف ذلك هو الصحيح، ولم تكن القهوة الساخنة، قادرة على إقناعها بغير ذلك. صعد إلى غرفته ليعمل، ولكنها لم تسمع صوت آلته الكاتبة.

جلست ليزي تحتسي قهوتها في غرفة الجلوس، محاولة تحليل أحداث ما بعد الظهر. كان الأمر رائعاً، أما الآن وقد خفّ حماسها للعمل، فقد انتهى كل شيء.

كان عملها أهم شيء في حياتها. وهي تعتبر أنه من الحماقة أن تنساق وراء مشاعرها تجاه رجل لا يعيرها انتباهاً. لو أنه أظهر إعجابه بها، لاختلفت الأمور. لو أنه فقط رحب بوجودها إلى جانبه... وأحبها بتجرد، وليس لمجرد إرضاء رغبته بها... تنهدت بعمق لدرجة أحست معها بأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة.

أسندت مرفقها بركبتها ووضعت يدها فوق ذقنها ـ وهي في جلستها هذه ـ راحت تحادث نفسها. لم ينفع الأمر، ولكنها على الأقل قد حاولت. عودت ليزي نفسها على مر الأعوام، على رؤية الجانب المضيء من كل ما يعترضها.

تمكنت أخيراً من تخفيف معاناتها، فأقنعت نفسها بأن ما حدث كان لمصلحتها هي. إن إدي ذو نسب، والفرص أمامه

شبه معدومة لإرضاء نزواته بسبب وجوده في تلك القرية الفرنسية النائية. لذا فلا يحق لها لومه، خاصة وأنها أقحمت نفسها عليه، وركزت نظرها فوق ساعديه. ولا تلومه أيضاً على تحديد موقفه الحسي منها. لقد اختار العيش وحيداً، فهو، على الأقل، لم يدع أنه معجب بها لإغوائها. لا، إنه رجل حساس، مستقل، هدفه العمل. وهي تملك المزايا نفسها. لم يدمر الكون عندما صدت محاولاته في السابق، وهو لن يُدمر هذه المرة.

إنه يلومها بلا شك، ومن هنا صمته الدائم. ومع أنه يسعى لإظهار تفهمه، خامرها شعور بأنه يخفي نقمة عارمة. هل تعود المياه إلى مجاريها صباحاً؟

عندما نزل حوالى السابعة مساء أخبرها بأنه لن يكون موجوداً عند الصباح.

قال: «سأقصد مونبلييه لعدة أيام.»

أخذت بمظهره الجديد ـ ذقنه الحليقة الناعمة ـ بدلته البيضاء اللون ـ ربطة عنقه. وكان قد علق حقيبتي سفر عند أسفل السلالم.

قالت بابتسامة مبتورة: «حسناً.»

اقترب وجلس قبالتها، وراح يسوّى قماش سرواله، الشيء الذي لم يكن مضطراً للقيام به وهو مرتد بنطال الجينز. دفعها هذا إلى التفكير بأنه لم يبدل هندامه فحسب. انحنى بعض الشيء واضعاً ذراعيه فوق فخذيه، وقال: «أمامي الكثير لإنجازه. سأتغيب ليومين أو ثلاثة على الأكثر. السيدة رودجت ستتكفل بأمر طعامك، فلا داعي للقلق...»

أجابت وقد أسعفتها سرعة بديهتها: «بوسعي تدبير أمر

طعامي! إنني أفعل هذا مذ كنت في الثامنة من عمري!»

نظر إليها بريبة: «الثامنة؟»

«أجل. لم أعد الطعام في الثامنة، ولكنني في تلك المرحلة ذهبت إلى المدرسة الداخلية. وفي أمكنة مماثلة، يتعلم المرء تحمل مسؤولية نفسه، لذا ليس عليك أن تعتبرني عاجزة عن تدبير أموري فقط، لأنك تراني مشتتة أحياناً.»

ابتسم، ثم قال: «أنا لا أعتبرك كذلك أبداً، يا ليزي. كل ما في الأمر أنني أفكر بالسيدة رودجت... لا أريدها أن تكون عديمة الفائدة...»

«حسناً، في هذه الحال...»

قال مقاطعاً وقد اكتست ملامحه سيماء: «أظن من الأفضل أن تعلمي سبب رحلتي.»

«لا داعي لأن تفعل.» انبرت مدافعة. «لديك ملء الحرية! بوسعك القيام بما يحلو لك، فما تقدم عليه هو شأنك أنت.»

بريق غريب شع في عينيه. «ماذا تقصدين؟ إن كنت تلمحين لما حدث بعد الظهر، فينبغي أن أذكرك بأنه يلزمنا...»

قضمت شفتها بقسوة. ثم قالت: «لم أقصد هذا، إطلاقاً. أعلم أنها غلطتي، صدقني...»

فقال بعنف: «ليزي دعينا من الأخطاء. ما حدث قد مضى. كلانا أردناه... في البداية على الأقل. وكان من حقك التوقف متى شئت ذلك. الآن، وبعد إذنك، أود تغيير الموضوع.» راح بعدها يحدق بها ملياً.

كان عليها أن تعترف له بالفضل، لأنه بادر إلى ذكر الحقيقة، وإن كانت لا تؤمن بها. ابتسمت ببرود.

lilas.com/vb3 نور

«بالعودة الآن إلى ما كنت بصدده، سأقصد مونبلييه لزيارة المحامي. أظن أن الوقت قد حان لتسوية قضية المنزل، وهذا لمصلحتنا نحن الاثنين.»

هزت رأسها محاولة إبداء التفهم لما تعتقد أنه منطقي وحكيم. يحق له مراجعة المحامي. كان عليه القيام بذلك مذ وصلت! كانت هي أيضاً تنوي القيام بذلك. ليس من سبب يدعوها للغضب إذن. أبداً. «نعم الأمر.» تمتمت، وهي تغتصب من فمها الكلمات.

وجدت نفسها تتساءل، عن سبب تلكوئه في تسوية القضية من قبل. قد يكون ذلك احتمال أنه كان يتوقع قيام علاقة حسية بينهما، في ما لو اعتمد معها أسلوب نبذ العدائية. اختلفت الأوضاع الآن. هذا ما سعت إليه، فكان من الطبيعي أن تشعر بالارتياح. ونظراً لتمنعها الشديد في إقامة علاقة معه، كان من شأن تلميحه إلى عدم رغبته بها، أن يدفعها للرقص جذلاً. أحست بأن الجليد يذوب في قلبها. انتابها شك بأن تكون قادرة على الحراك، وليس على الرقص...

«يسعدني تفهمك للأمر.» انتصب واقفاً، وابتسامة غريبة على وجهه. «سأمضي هذا المساء، ليكون أمامي الوقت الكافي.» ودخل الغرفة وهو يبدو كرجل أعمال بحلته، ثم حمل حقائبه الجلدية وانصرف.

احتفظت بابتسامتها الهزيلة إلى أن سمعت هدير محرك الرانج روفر، فانفجرت باكية.

غرقت في سبات متقطع. استيقظت مرهقة في اليوم التالي. كم هي بحاجة ليوم إجازة! نادراً ما كانت تجد إدي

أمامها عند استيقاظها، وهي تفتقد وجوده مع ذلك. الآن تدرك كم كان مجرد وقوفه أمامها يسعدها من تحت جفنيه ومراقبته لها وهي منغمسة في أعمالها. وأيضاً جلوسهما إلى مائدة الطعام في الشرفة يحتسيان الشراب ويتبادلان الأحاديث...

وجدت نفسها تعمل بكد. وضعت السيدة رودجت الطعام على الطاولة قبل انصرافها، ولكن الأمور اختلفت بتناولها الطعام بمفردها. حملت الأطباق إلى غرفتها، وهي تتباطأ في مشيتها محاولة إضاعة شيء من تلك الساعات العصيبة. لدى مرورها بغرفة إدي لم تستطع مقاومة فتح الباب، واستراق النظر إليها. راعها أن تجدها منظمة. لم يكن في الغرفة ساعة منبه، أو ملابس فوق الخزانة، أو صور مؤطرة بقرب السرير العريض. شعرت بخيبة. ما السبب؟ لقد سبق وزارت المنزل مرات عديدة، ولكن، لم يحدث أن اختلست النظر إلى تلك الغرفة بالذات. عمَّ تبحث الآن؟

وصلت إليها رائحة الطلاء مفعمة بأريج رجولة إدي. عادت بسرعة إلى فسحة الدرج. الغرفة التالية، غرفة مكتب إدي وهي لم تدخلها من قبل أيضاً، مع أنها استرقت النظر إلى رفوف الكتب والأوراق من خلال بابها المفتوح في عدة مناسبات.

دخلت وجلست وراء المكتب، الذي يواجه نافذة تطل على الشرفة. وضعت ورقة بيضاء بإهمال في الآلة الكاتبة. كان ثمة رزمة أوراق مطبوعة وضعت داخل المشبك. تناولت الورقة الأولى، وراحت تقرأ: «الفصل الأول...» كان هذا

lilas.com/vb3 نور

آخر ما كتبه إدي. تفرست بكلماته ملياً، وهي تمضغ قطعة من الخيار.

مرت ساعة من الوقت على جلستها هذه. ينبغي أن تعود إلى عملها، ولكنها كانت ترغب في معرفة بقية القصة...

خمس وعشرون دقيقة أخرى مرت، قبل أن تجبر نفسها على ترك القصة، لتعود مسرعة إلى عملها. الرواية كانت ممتازة، وبما أن ليزي مولعة بالمطالعة، فقد هرعت عند السابعة مساء لمتابعة القصة.

راحت تقرأ، ولم تتوقف إلا لالتهام طبق أعدته السيدة رودجت في التاسعة، إلى أن وصلت إلى الصفحة الأخيرة. لم تنته القصة طبعاً، مما أثار جنونها! كم هي مشوقة لمعرفة نهايتها.

خطر لليزي عندما بدأت مطالعتها، أنه سبق لها وقرأت روايتي إدي السابقتين... بنفس الاستمتاع... رغم أنها لم تلحظ سابقاً، أنه كان ينتحل اسماً مستعاراً. وهذه المخطوطة الأخيرة تشكل الجزء الأخير من ثلاثية... أو ربما الثالثة من أصل أربع. من يعلم؟

تتناول القصة الأحداث التي مرت بامرأة وعائلتها، منذ حداثتها في الجزر الهندية وصولاً إلى يومنا هذا. عندما تزوجت هذه المرأة حضرت إلى منزل زوجها، في جبال فرنسا. اتضح لليزي مع تعمقها في القراءة أن المنزل ليس سوى مون آبري. والوصف كان دقيقاً، إنما لم يكن مون آبري مجرد منزل أقامت فيه شخصيات الرواية، بل رمز للصلابة والولاء العائلي

والخلود... وحتى الحب. ماذا قال إدي؟ أراد أن يكتب عن الأمل وليس اليأس؟ لقد نجح حتماً، وهذا المنزل يعتبر نواة نجاح.

أدركت ليزي الآن، وهي تجلس فوق مكتب إدي، أنه لن يسعها المطالبة بمون آبري. منزله كان مصدر إلهامه، وهو بمثابة الروح لإبداعه الفكري. كانت الرواية تتضمن وصفاً حياً للجدران، والحديقة الملأى بزهور الاقحوان، والسوسن، والقرنفل، والبنفسج والزنبق البري. رأت، من خلال كلمات إدي، زوجاً يزرع الورود لإرضاء زوجته الانكليزية. وقد أثمر ذلك الزواج حباً متيناً، لا تزعزعه الأعاصير. تزاحمت الدموع في عينيها. كتبه رأت النور في هذا البيت، وامتدت فيه جذورها. إنها ما زالت عاجزة عن فهم شخصية كاتبها، ولكنها، على الأقل، تدرك أهمية هذا المنزل في حياته.

عادت أدراجها إلى غرفتها، وحدقت ملياً بصورتها المعكوسة في المرآة. أدركت الآن ما ستفعله. ستمكث إلى أن تنتهي أعمالها... هذا إذا كان إدي يسمح لها بذلك.

إنه غاضب منها، وصداقتهما تشوبها رغبته فيها. ها هو ذا الآن يراجع محاميه بشأن مون آبري. لن يحتمل بعد الآن وجودها. ستخبره، متى عاد، أن لا حاجة به للقانون، فبوسعه الاحتفاظ بالمنزل. ستكون قادرة في وقت قريب على استئجار شقة.

آلمتها فكرة مغادرتها لمون آبري. لقد غمرها إحساس مريح وهي تدخل مون آبري لأسابيع خلت، وهي الآن تجده

liilas.com/vb3 نور

بارداً موحشاً، في غياب إدي. من الأفضل، إذن، أن تمضي في سبيلها.

قال يومين أو ربما ثلاثة، وعند انقضاء السبع والأربعين ساعة، بدأت ترهف السمع، علّها تلتقط هدير محرك عربته، ولكن وحده حفيف أوراق الشجر تناهى إلى مسامعها خلال سكون الليل. تكرر الأمر طوال المساء، فكانت أذناها تتلهفان لسماع هدير الرانج روفر. استيقظت مرتين خلال الليل، لتقنع نفسها بأن صوتاً ما أيقظها. وجالت بنظرها عبر النافذة فما رأت سوى طيف عربتها المتوقفة في المرآب.

وصل بعد الظهر. ولحسن الحظ، كانت تعد قالباً جديداً، مما حال دون تلبية رغبتها بالترحيب به. أرهفت السمع، فتمكنت من تمييز صوت صفقه لباب السيارة، ووقع خطاه الواثقة فوق الحصى. اتجه نحو المنزل دون أن يمر لرؤيتها.

حاولت إلهاء نفسها بأعمال متفرقة بُعيد فراغها من القالب. أرادت أن تظهر له عدم تشوقها إليه، وهي أعجز من أن تخفي اضطرابها عن نفسها.

حضر لرؤيتها بعد ساعة من الزمن.

«ليزي؟» كان يرتدي الجينز، وقميص بولو، وقد نمت ذقنه قليلاً... رجع إلى عادته، ولكنها أقنعت نفسها، بأنه مجرد رجل غريب غادر منذ قرابة الثلاثة أيام.

«مرحباً.» قالت متنهدة وهي تحاول جاهدة منع الابتسامة من أن ترتسم فوق شفتيها. ارتابت في أن تكون عيناها مبتسمتين بالقدر الكافي.

كان يحمل كأس شراب في كل يد. «هل لديك متسع من الوقت لمشاركتي في تناول كأس من الشراب؟»

عادت الأمور إلى مجاريها! «سأغسل يدي.» قالت ذلك متجهة نحو المغسلة لإزالة أوساخ النهار.

كان ينتظرها في الشرفة، مداعباً الكأس بيده.

وسألته محاولة جعل صوتها يبدو طبيعياً: «كيف سارت الأمور؟»

تململ قائلاً: «يبدو أنني أزحت الغطاء عن جانب من المعضلة.» ثم مدد ظهره، فبرزت عضلات كتفيه، وراحت عيناه تتفحصان السماء بهدوء.

سألته: «ماذا قال المحامي؟» كم أصبح هذا السؤال سهلاً الآن، إذ قررت التخلي عن حقها في المنزل.

تجهم وجهه وقال: «الأمور معقدة. أود مناقشة الأمر لاحقاً، إن كنت لا تمانعين. لم لا ترافقينني إلى ألبي الليلة لتناول العشاء؟ أعرف مطعماً رائعاً يقدم أطباقاً شهية.»

ارتسم الحبور فوق وجهها. باستثناء النزهة الأخيرة، لم يقضيا الوقت معاً سوى في المنزل. مع أنه كان يقترح عليها مرافقته إلى المدينة لتناول كأس شراب في أحد المقاهي. كانت ترفض متذرعة بعملها. فمرافقته إلى ألبي تعتبر بمثابة مأزق لها، خاصة وأنها قررت الرحيل، فقد تعمدت أن تقلل مدة وجودها معه قدر المستطاع.

أجابت بغير اكتراث: «حسناً نعم الفكرة.» ثم أردفت: «يبدو أنها أنباء سيئة لي.» أأخبرك أن الحق بجانبك؟ أتنوي أن تطلعني على الخبر بحيث لا يسعني تحطيم زجاجة فوق رأسك؟»

liilas.com/vb3

«هي لم تذكر شيئاً من هذا القبيل.» وأجاب هو بامتعاض: «أفضل مناقشة الأمر لاحقاً.»

«حسناً.» أجابت ثم انساقت وراء أفكارها، فتصورت إدي يحادث المحامية بفرنسيته الطليقة، وهو مائل أمامها بشعره اللامع، وساقيه الطويلتين، وقد ارتدى بدلته الجميلة. أفقدتها الغيرة توازنها.

سألته: «عمّ سنتحدث إذن؟» كانت تحاول محو الصورة المزعجة من مخيلتها.

هز كتفيه وقال: «لست أدري. إنني متعب، حاولي تسليتي. حدثيني عن نفسك.»

«يسعدني أنك تجدني مصدر تسلية.» علقت بسخرية، وقد أسعدتها الطريقة التي يحادثها بها.

«هيا...» قال بتملق. «حدثيني عن مدرستك الداخلية...»

«ليس هناك ما يستحق الكلام. كانت مدرسة إعدادية في كِنت، فيها كل مواصفات هكذا أمكنة. الملابس الموحدة وعصي الهوكي ورئيسة الممرضات في المصح. ولكن لم تكن القساوة موجودة، ربما لوفرة الطالبات الخارجيات. تجاوزت معظم الطالبات الداخليات سن الحادية عشرة لذلك، وللسنوات القليلة الأولى كنا نحن نحاط بمعلمة خاصة. أنا كنت أحبها.»

«لِمَ دخلتِها؟ أكان والدك في الجيش أو يعمل في الخارج؟»

هزت رأسها. إنه سؤال تصعب الإجابة عنه، ولكنها تملك الخبرة الكافية. تمنت أن تفي إجابتها بالمطلوب، فلا تكون مدعاة للشفقة. «لا. انتساب الفتيات إلى المدارس الداخلية أمر شائع، وبالنسبة إلي فقد قرر والداي معاملتي على قدم

المساواة مع أخي، الذي كان قد أدخل إلى مدرسة داخلية في الثامنة من عمره.»

نجحت! وتدبرت ليزي الأمر من دون أن تفصح له عن أمر انتقال أهلها من مكان إقامتهما، كي يتسنى لهما إيجاد مدرسة خارجية قريبة لابنهما!

اعتدل إدي في جلسته وفتح عينيه، وقد علت وجهه مسحة صلابة وقساوة. انتهى من كأسه، ووضعه فوق الطاولة بشيء من القوة.

«ماذا فعلتِ أثناء غيابي؟» سألها أخيراً، وسرت كثيراً لأنه كف عن سؤالها حول طفولتها!

«كنت أعمل.» قالت ببساطة. ثم ابتسمت ابتسامة تنم عن اعتذار. «وقد أقدمت على عمل جريء...» لجمت لسانها. لم تتمكن من إخباره بأنها قد قرأت كتابه. ما كان يجب أن تدخل غرفته بهذا الشكل، أو تقرأ مخطوطته غير المكتملة. طلبت منه مرات عديدة أن يعيرها كتابيه الأولين، فكان إجاباته تأتي مبهمة ولا تفي بالمطلوب. لم يردعها خوفها من إثارة غضبه، بل لأنها لا تريد أن يعلم أنها الآن تدرك مدى أهمية المنزل له. إنها أمور حميمة... وشخصية. ربما كان هذا سبب تكتمه حول عمله. ذلك كان شعوره أيضاً. لاح بداخلها طيف من السعادة، فقد بدأت تسبر غور ذلك الرجل الحصين.

«هل غفوت؟»

«عفواً؟»

«توقفت عند منتصف الجملة. كنت بصدد إخباري عن العمل الآخر الذي أقدمت عليه.»

liilas.com/vb3 نور

«حقاً؟» قطبت جبينها «أجل. لقد... أعددت وجبة طعام فاخرة؟»

«فهمت. وجبة جريئة؟»

«كلا. ليس تماماً. ولكنني... اقترضت كمية من توابلك.» ابتسمت ثم أضافت: «من دون إذن.» لمزيد من التوضيح.

راح يراقبها بفتور، وابهامه يطوف بفكه؛ ثم قال: «ثم بعثت منه إلى تشارلتون بالبريد، فهمت!»

نظرت إليه بريبة، وقالت: «ماذا تقصد؟»

«أقصد أنك تكذبين علي، يا ليزي. هذا كل ما في الأمر.» وضع كأسه فوق الطاولة، وانتصب واقفاً. كان يتحرك بهدوء، ليس هنالك ما يستدعي الثورة، ولكن عينيه عكستا صورة مختلفة.

liilas.com/vb3

غمرها شعور بالذنب. راحت ترمق بنظرات حاسدة بشرته البرونزية. من ذا الذي يتمنى أن يولد بشعر أحمر؟

«لست مجبرة على إخبارك بكل شيء!» انبرت مدافعة.

هز كتفيه. «ليزي، لست مجبرة على إخباري أي شيء.» قال ذلك، ومضى قبل أن يأتيه ردها.

نور

أخذت كامل وقتها في الاستعداد، فأمضت في الحمام وقتاً محاولة إزالة الحيرة التي غمرتها. إنها تكره الكذب، ولم يحدث أن لجأت إليه في السابق. إذن، ما سبب انجرارها إلى مواقف لا وجود للحقيقة فيها؟ إنها غلطته. لن تضيع الوقت بتحليلها للأمور. ولم تفعل؟ إن كان سيعاملها كفتاة عادية، فعليها أن تعامله بالمثل. وضعت رأسها تحت المياه وتركتها تنساب فوق عينيها. هكذا

أفضل. حاولت تلمس مكان المنشفة. لم تستطع التفكير جيداً، والصابون يغشى عينيها!

لم تكن فكرة جيدة. من الصعوبة بمكان، مثلاً، وضع الكحل على عينين يسودهما الاحمرار. حاولت للمرة الثالثة. تباً. يبدو وكأنها انتهت من البكاء لتوها، وهذا ما لا تريده قطعاً.

تأخر الوقت، ولم تكن قد ارتدت ملابسها بعد. طرق بابها بنفاد صبر.

«قلت العشاء، ليزي، وليس الفطور!»

«دقيقة واحدة...»

راحت تتفحص مجموعة الملابس التي تملكها؛ كان طرازها يعود لأيام الثلاثينات. وقد ابتاعتها لأنها اعجبت بصنعها، وأزرارها وأقمشتها. وأيضاً بأسعارها المتهاودة. وقد أعجبت بشكل خاص بطرازها الذي يبرز نحافة خصرها. قررت الخروج بسروال قصير وقميص قطنية، ثم عادت ليستقر رأيها على ثوب من الحرير الأزرق، ولفت حول عنقها منديلاً لطيفاً.

«ليزي، ما بك؟...»

«لابأس. إنني قادمة...»

انتعلت صندالها، ونزعت عن رأسها المنشفة، لتمرر أصابعها بعجلة فوق خصلاتها المبللة. مجفف الشعر يجعل شعرها في حال من الفوضى. لا بأس. سيكون قد جف متى أدركا المطعم.

لم يعلق على مظهرها إذ خرجت. وكم أدهشها أن ترى ملابسه البسيطة: قميص بولو وبنطال جينز، وسترة

زرقاء تدلت من على كتفه، وقد أمسكها بإصبع واحدة.

كان يقود السيارة في الدروب الوعرة بمهارة وخفة أثارتا حسدها. التزم الصمت. ظلت محدقة إلى أنفه الطويل واستدارة ذقنه، ولكن ملامحه أبت أن تنبئها بما يختلج في أعماقه.

لم يعد بمقدورها احتمال الصمت.

«هل مزاجك سيىء؟»

«لا، بل أنت.»

«لست كذلك.»

«جيد.»

الصمت هو أسلم حل، هذا ما ارتأته.

ترجلت من الرانج روڤر لدى وصولهما، ووقفت تنتظره ليأتي ويقفل الباب. شعرت بشيء من الخجل وهي بملابسها الزاهية بينما هو ظهر بملابس عادية جداً. بل أقل من عادية. قررت إضفاء معنى التحدي على الموضوع. لا ضير البتة من التأنق...

وكم فرحت حين اقترب منها، ثم توقف وراح يرمقها بنظرات طغى عليها الإعجاب الشديد.

قال بصوت أجش: «تبدين فاتنة...»

اعتراها الذهول. فبعد اختلاسه القبلة منها في الليلة الثانية، متذرعاً باعجابه بشعرها، توقف عن التعليق على مظهرها. انتاب صوته هذه المرة حشرجة عجزت ليزي عن تفسيرها. لا يعقل أن تكون دليل إعجاب وتقدير لها، هل هذا ممكن؟

تمتمت: «شكراً.» ثم رفعت ذقنها بعض الشيء. رفعت يدها لتتحسس خصلاتها، فوجدتها مبللة.

أردف، وقد راحت عيناه تطوفان بها ثانية. «في الواقع، تبدين رائعة. إنما أظن أنه ليس من اللائق أن تدخلي المطعم بهذا الشكل.»

قطبت وجهها، وقد جحظت عيناها.

«ثوبك مبلل جداً، وحالته مزرية...»

خفضت بصرها وقد انتابها الهلع. التصق شعرها المبلل بظهرها، وبات الثوب ملتصقاً بجسدها، فتأوهت باعياء: «أوه...»

أغرق في الضحك. في البداية طاف بوجهه ظل ابتسامة، ثم ضحك بملء فمه. لقد ضحك هكذا في اليوم الأول...

«أظن أن الطقس أصبح بارداً...» قالت مرتجفة، وقد عقدت ذراعيها. ثم انتقلت إليها عدوى الضحك، فراح جسدها يهتز وقد استسلمت لقهقهات صاخبة.

ناولها سترته القطنية، فارتدتها ثم راحت ترفع كميها.

«هيا.» قال وقد أمسك بكتفها. «إنني أتضور جوعاً.»

كان المطعم صغير الحجم، متواضعاً جداً وشكله بسيط؛ إلا أنه يُعد أطعمة جد شهية. لو أن أطعمة كهذه قدمت في لندن لطالب أصحابها بمبالغ خيالية ثمناً لها. أما في ألبي، فتعدها زوجة الطباخ، وتقدمها لأبناء المنطقة الذين يتذوقون المأكولات الشهية، وبأسعار معقولة جداً.

احتفظ إدي بجو المرح طوال الوقت، وقد أزمع على عدم خوض موضوع لقائه مع المحامية.

«أظن أنه ليس مناسباً أن تدعني متوترة بهذا الشكل.» قالت ليزي وهي تتناول قطعة من اللحم. «أخبرني على الأقل بعض ما قالته.»

liilas.com/vb3 نور

«حسناً.» قال إدي محاولاً كبت ضحكة. «طلبت إليَّ عدم مناقشة الأمور معك، على اعتبارك خصماً لي، وليس جائزاً أن أكشف أوراقي أمامك.»

«وستنفذ ما أملته عليك كولدٍ مطيع، هه؟» قالت بتحدٍ.

اكتفى بالابتسام وعاد إلى طعامه. قرر إدي التحدث عن زيارته إلى مونبلييه، بعدما فرغت ليزي من تناول قطعة من الحلوى بالفريز.

قال بوقار: «اصغي إلي يا ليزي أود الاشارة أولاً إلى أن الأمور قد ساءت بشكل مريع؛ فلسنا بصدد قضية قانونية بل سلسلة قضايا لا يمكننا فصل واحدة منها عن الأخرى. بكلمة أخرى، يتطلب الأمر سنوات طويلة، وأموالاً باهظة تفوق ثمن المنزل بأضعاف. واقترح أن تراجعي محامياً آخر، إذ ينبغي أن تعرضي قضيتك على شخص تهمه مصالحك.»

تفادت النظر إلى عينيه، ثم قالت: «شكراً. أقدر نصيحتك هذه. حقاً. ولكنني قررت عدم خوض المسائل القانونية.»

حدق بها ساخطاً، وقال: «لِمَ؟ كنت البادئة باقتراح بت القضية قانونياً. إنها مسألة معقدة للغاية، وستكونين بحاجة ماسة للنصح.»

هزت رأسها، وقالت: «لا. أظن من الأفضل أن أتخلى لك عن مون آبري. أنت دفعت ثمنه لجدي، بينما لم يكلفني أنا شيئاً.»

وأخيراً سألها: أعاد ظهره إلى الخلف، وراحت عيناه تتفحصانها بدقة. «وماذا بشأن آنيتك الفخارية؟»

هزت منكبيها آسفة وأجابت: «حسناً، نجاح أعمالي

يؤهلني إلى استئجار منزل لائق. لقد تخطيت هذه المشكلة الآن، ولا يلزمني سوى أسبوعين لتأمين مكان إقامتي.»

سعت جاهدة لإخفاء الانطباع الذي كونته عن كتبه، إذ أنها لا تطيق فكرة حمله على الامتنان لها، إن هي باحت بالأمر. أرادته أن يعتبر الأمر مجرد قرار شخصي.

«وتمنيات جدتك؟ ألم يعد لها اعتبار لديك؟»

حدقت بأظافرها ملياً لتتأكد من خلوها من الجبس. إنها مضطرة إلى الكذب مجدداً...

«ليس كثيراً، فلم تكن جدتي من النوع العاطفي. على أية حال، جدي هو من باعك المنزل، وكنت أحبه أيضاً.» تنهدت بعمق ثم أردفت: «عند وصولي، سيطرت علي فكرة بدء أعمالي حيث تكون المصاريف قليلة، أما الآن فلم يعد هذا الأمر يشغلني!»

توقعت أن تطالعها إمارات الحبور فوق وجهه عندما تجرأت ونظرت إليه؛ ولكن، راعها أن ترى قسماته وقد اعتراها الشحوب والقسوة.

«إذا وافقت على قرارك هذا، كيف عساني أعلم بأنك لن تبدلي رأيك بعد شهر، أو اثنين، وقد نفدت أموالك؟»

«لن أفعل.» قالت محدقة به ملياً.

«ليزي. بعت كل ما تملكين، وجئت تسعين وراء سراب. ومع ذلك تريدين مني أن أصدق...»

«سوف...» آه. إنها لا تنكر أنها شديدة الاندفاع، ولكن، لا يسعها تفسير الأمر. «سأوقع وثيقة أتنازل فيها عن حقي.»

«يمكنك التنازل عن ملكيتك لعرش انكلترا أيضاً. إن لم تقصدي المحكمة لإثبات ملكيتك له أولاً، فإن توقيعك

liilas.com/vb3

بالتنازل عن حقوقك لا قيمة له من الناحية القانونية.»

قالت معترضة: «ولكنني لن أصاب بالإفلاس... فلدي الكثير من الطلبات، كما تعلم!»

التزم الصمت لفترة طويلة، وعندما تكلم لم تتمكن من تصديق أذنيها.

قال بسخرية: «القضية تتعلق بالمال إذن! المال هدفك، شأن الجميع!»

«لا شأن للمال...» صرخت، وقد آلمتها التهمة المجحفة.

«حقاً؟ أمتأكدة أنت من أنك لم تراجعي محاميا خلال إحدى زياراتك للمدينة؟»

«لا!» قالت باندفاع. «كنت أخبرتك لو أنني فعلت! بت تعرف طباعي جيداً.»

راح يحدق بها بغيظ. لكم آلمتها نظراته تلك. هز كتفيه وقال: «لقد نصحتني المحامية بعدم مناقشة هذا الموضوع معك. ولكان أمراً غريباً لو أن محاميك لم ينصحك بالمثل.»

«لم أكن لأكذب! لو قيل لي هذا ولو قررت تنفيذه، كنت على الأقل أخبرتك.»

«حقاً؟» اعترى الجمود صوته، مصحوباً بالريبة. «لعل السبب هو هذا العمل الجريء الذي أقدمت عليه في غيابي؟ راجعت محامياً؟ لست أحفل بادعائك الاخلاص، يا ليزي. كنت تستعدين للمعركة أثناء غيابي، أليس كذلك؟»

وجودهما في المطعم، حال دون أن تلقي بوجهه ما يصادفها على المائدة. كانت ما تزال في جلستها، تضغط على شفتيها، محاولة كبح ثورتها.

وقال بصوت يخالجه الشك: «أنت إذن تجهلين كنه

متاهات القانون؟ تجهلين تلك السنوات التي يقضيها المرء بين المحاكم؟ وحتماً تجهلين التكاليف الباهظة، أليس كذلك؟»

فتمتمت: «لست أفهم...» كل تلك الصعوبات، أسعدته حتماً لأنها ستدفعها للتنازل عن حقوقها، ليس إلاّ؟

قال وقد اكتسى وجهه بمسحة ازدراء: «أتدعين أنك لم تفهمي؟ ولكنني أعتقد أنني أفهم.» توقف لينظر مباشرة في عينيها ثم تابع: «فقدت صبرك، يا ليزي. لا يسعك انتظار حكم القانون، أليس كذلك؟ خاصة وأنك عرضة لخسارة المال الذي تدره عليك أعمالك.»

كان هذا فوق طاقتها! لم تستطع تصديق ما تسمعه. احتقن وجهها، وانتصبت واقفة، لتغادر المطعم بخطى واسعة. استطاعت إخفاء اضطرابها وثورتها العارمة بإباء وترفُّع. ما الذي دهاه؟ كيف له أن يتهمها بهذا الشكل؟ جعلتها هذه الأفكار ترتعد. لا يسعها تحمل فكرة أنه يعتبر توددها إليه مجرد وسيلة كسب...

لم يمض على خروجها سوى القليل، حتى وجدته إلى جانبها.

«اذهب بعيداً!» صرخت من خلال ثورتها.

«إنك أنتِ ذاهبة بعيداً. ولست أنا...» قال برنة ساخرة.

راحت تجري، فوسّع خطاه عمداً ليبقى بمحاذاتها.

«الظلام حالك، يا ليزي. ثوبك رطب، ولا مكان لك تلجأين إليه.»

كان محقاً. لمرة واحدة في عمرها تجد لها ملجأ يأويها، وكان مون آبري. «ملجأي». قد قصدته بأسرع ما أمكن

liilas.com/vb3 نور

عربتها البائسة. توقفت فجأة وقد اعترى وجهها الجمود.

«أهذا رأيك؟» قالت بنبرة ضارية. «لا مكان لي ألجأ إليه؟» أرسلت ضحكة مريرة. «لِمَ برأيك تكررت زياراتي لألبي، يا إدي؟ قد لا يكون اسمه تشارلتون، بل...» أحست بلسانها يتلعثم، وقد خانها من جديد. رفعت رأسها بحنق، ثم عاودت جريها.

وجدته قبالتها بلمح البصر، وقد قطع عليها الدرب. أمسك بذراعها بقسوة مؤلمة. «لا! لن تذهبي إلى أي مكان. ستأتين معي وتصغين إلى ما سأقوله، شئتِ أم أبيتِ!»

قادها نحو الرانج روفر، وحملها بين يديه. قاومته بعنف وراحت تهز رجليها ضاربة صدره بقبضتيها المقيدتين. كان يجب أن تحتفظ ببعض قواها. تمكن ببنيته القوية من لجم مقاومتها الشرسة، وفتح باب العربة. رمى بها فوق المقعد، ثم أغلق الباب، واستدار ليجلس خلف المقود.

انطلقت بهما العربة، سالكة دروب البلدة الضيقة، وما لبث أن عاد إلى أفكاره المؤلمة.

«إذن، صرفت النظر عن مخططك، هه؟ قررت التخلي عن حقوقك، لتنصرفي إلى تسوية خارج نطاق القانون تخلصك مني؟ لا شك أنك فكرت بأنه بوسعك اقتناص مبلغ مني يفوق قيمة المنزل؟ تعلمين جيداً أنني منهمك بالكتابة، ويصعب علي التنقل بين المحاكم.»

ضعطت ليزي وجنتيها غاضبة. هذا مريع! ماذا جنت لتستحق معاملة كهذه؟

صرخت محتجة: «لا! كيف يمكنك أن تظن ذلك؟»

بدا وكأنه لم يسمع، ثم قطع السكون ليقول، بصوت أجش: «والذي حصل، أن محاميتي أيضاً عرضت علي تسوية خارج نطاق القانون ولكن خطتها... تفوق عرضك سخاءً.» توقف فجأة، تاركاً للصمت والظلمة مهمة إزالة الهوة بينهما.

قال أخيراً: «اقترحت... أن نتزوج. زواج مصلحة بالطبع. من شأن هذا تسوية القضية العالقة بيننا. ثم يعمد أحدنا بعد الطلاق إلى شراء حصة شريكه. ولكنك لن تبالي بتسوية كهذه، أليس كذلك، يا ليزي؟ إنك ترغبين في الاستيلاء على كل ما تطاله يداك.»

«بالطبع لا! كيف تتجرأ على اتهامي بالمخادعة؟ أود اعتماد العدل والسخاء قطعاً... أوتعلم أنك تفتقر لتفهم المشاعر النبيلة!»

فقال ساخراً: «ترضين بالزواج مني إذن، أليس كذلك؟ أم أن هذا يشكل إحباطاً لمشاريعك المالية؟»

«أرضى حتماً!» صرخت بغضب. كيف تجرأ على الظن أنها لن تفعل؟

lilas.com/vb نور

الفصل السادس

قررت ليزي صبيحة ذلك اليوم تنفيذ أمر واحد، بعد أن راقبت بزوغ الفجر الذي غمر الوادي بضباب أزرق قبل أن ينشر فوق الأرض ألوان الجنوب الفرنسي الزاهية. وذلك الأمر هو اخباره أنها ارتكبت خطأ فظيعاً. فهي تعتبر فكرة الزواج منه للحصول على حصة في المنزل، من الأمور المستحيلة؛ وخاصة أنها تخلت عما كانت تطالب به.

عندما نزلت وجدته واقفاً في الشرفة يراقب الشمس وهي تسبح في الفلك.

«إدي؟» نطقت بإسمه بنبرة غاضبة. أي إدي ستصادف؟ الغريب الذي التقته عند وصولها، والذي افتقدت صحبته كثيراً في الأيام القليلة الماضية؟ أم الرجل الفظ الذي أشبعها تعنيفاً بالأمس؟

إستدار ليواجهها، وقد انحنى إلى الخلف فوق السور. كانت ملامحه خالية من التعبير؛ أكثر شحوباً، ربما بسبب لحيته التي تلقي بظلالها فوق وجهه.

«نعم؟»

«جئت للتحدث بشأن ليلة أمس.»

فقال بلهجة لا تخلو من السخرية: «أخذت وقتك في التفكير، وراجعت حساباتك بدقة؟»

أمضت ليلة مضنية، فتقلّبت في فراشها طوال الليل، محاولة تحليل مناقشتهما من جميع الزوايا، علّها تمسك

بالخيط الذي يوصلها إلى معرفة سبب الإتهام الشنيع الذي وجهه إليها. الآن أدمى كلامه الجارح قلبها، وليأسها الشديد، راحت شفتها السفلى ترتعش، تجمعت الدموع في مقلتيها فحاولت حبسها. تعثرت في خطواتها وهي تستدير لتتجه نحو السلالم. عزمت على إرجاء المناقشة إلى أن تسترد رباطة جأشها.

كان لإدي موقف مختلف، فقد أمسك بمعصمها بقسوة، بينما راحت تقاوم بشراسة.

سألها بغضب: «أراحلة أنت؟ إلى ألبي ربما؟»

اللعنة! أعاد إليها كلامه الجارح إباءها. لا تريده أن يشعر بمدى تأثير إهانته عليها. كفكفت دموعها ونظرت إليه بوجه مجهد.

«إلى أبعد مكان ممكن!» تمتمت من بين أسنانها.

«وتخلّين بالاتفاق، يا ليزي؟ أيتها المبجّلة؟»

«لا!» قالت بحنق.

لم يهتز، وتابع التحديق بها ببرود، وكأني بها تحولت من فتاة شاركها الطعام والضحك، و«الحب ... إلى نوع من الزواحف. غرقت في دوامة من الحيرة. رفعت وجهها بتحدٍ، ونظرت إليه بعزم. فليكوّن عنها الانطباع الذي يحلو له، ولكنها أبداً لن تجعله يلحظ اكتراثها.

«سأقصد مشغلي. سأقوم اليوم بإعداد بعض الأواني إحتفاء بزفافنا الميمون.»

ترك معصمها فجأة، وابتسم بتهكم قائلاً: «كي يتسنى لك قذفها في وجهي، لحظة إجراء مراسيم الزفاف؟»

فقالت بتعالٍ: «لن أجازف بفقدان أشياء ثمينة.» وراعها

linlas.com/vb
نور

تحوله المفاجيء نحو اللين. فاستطردت: «على أية حال، لن يكون زفافاً من هذا النوع.»

قال بصوت خفيض: «حقاً؟»

شعرت بانقباض مفاجيء. ماذا عساه يقصد الآن؟

قالت: «هذا الزفاف... ليس سوى صفقة توفر علينا سنوات من المحاكمات العقيمة. أليس كذلك؟»

«حتماً...» قال موافقاً، وتلك الابتسامة ما زالت تحوم في مكان ما خلف عينيه.

قصدا مونبلييه، ونزلا في أحد فنادقها التاريخية القديمة، كل منهما في غرفة، بالطبع.

فارق العبوس وجه إدي مذ قررت المضي في إجراءات الزفاف، لسوء الحظ.

أدركت كم أن المنزل هام بالنسبة له، وكان هذا حافزاً لها للمضي قدماً. إنها الوسيلة الوحيدة لضمان مصالحه، ولم تكن لتخذله. ولكن الرجل الذي تناولت معه العشاء، والذي اتهمها بالتخطيط لابتزاز أمواله، قد يغدو هدفاً أسهل بصفته زوجها. أين منه تلك الجاذبية التي كانت تبهرها.

إصطحبها إدي إلى أحد المتاجر الفخمة لدى وصولهما إلى المدينة. أصر على أن يبتاع لها ثوباً فضفاضاً من الحرير الأخضر، تزينه ورود صفراء صغيرة؛ بالإضافة إلى قبعة واسعة مزينة صفراء تتماشى مع الثوب. أخبرها أنه عليهما أن يعتبرا الأمر جدياً، وإلا أثارا شكوك المراجع المختصة. أما هو فقد ارتدى بذلته الأنيقة.

كان الأمر مستهجناً، ولكن ليزي أرادت إبقاء أفكارها

مركزة باتجاه إجراءات الزفاف. لم تهتز سوى عندما وضع الخاتم في إصبعها، ولكنها سرعان ما استردت رباطة جأشها. كان زواجاً فرنسياً بكل معنى الكلمة، وهو أبعد ما يكون عن الزفاف المتعارف عليه.

وهكذا، عادا أدراجهما إلى مون آبري.

«ما هو شعورك، سيدة هولت؟» سألها، بينما راحت سيارة الرانج روفر تجوب بهما الدروب الضيقة.

راحت تحدق به من تحت قبعتها. تبدلت معاملته لها مذ وافقت على الزواج منه، وعيناه اللتان كانتا ترقبانها بحقد، تتجنبان النظر إليها الآن؛ وصوته الذي كان جافاً، أصبح أكثر دفئاً، وإن كانت تشوبه رنة السخرية.

تمتمت بتحفظ: «مزاجك حسن.»

«هذا صحيح.»

وما الذي يدهشها؟ بات يمتلك المنزل، ومن الطبيعي أن يكون سعيداً. حكم عليها أن تمضي وحيدة شهوراً طويلة من الكبت والحرمان. كم من الوقت تستغرق إجراءات الطلاق في فرنسا؟ تمنت أن يسترد شخصية الرجل الفظ.

«اعتقد أنك أنت قادر على ذلك.»

إلتزم الصمت لفترة، ثم قال بهدوء: «من المفروض بهذا الزواج أن يحل مشكلتنا. بتنا الآن نملك المنزل مناصفة، دونما حاجة إلى محاكم. ستمضي فترة من الوقت قبل أن نتوصل إلى حل نهائي، لذا أقترح أن نقيم هدنة في ما بيننا.»

«طبعاً.» قالت بشيء من الحدة، ومن ثم لانت. المشكلة الأساسية تكمن في أنها تعتبر أنه هو المسؤول عن توترها كلما كان قريباً منها.

lilas.com/vb3 نور

إنعطفت العربة باتجاه سلسلة الجبال، فوجدت نفسها السكينة. تمت الصفقة ولا مجال للتراجع. أدركت بعد فترة الإسترخاء هذه، كم كانت أعصابها متوترة. إمتدت أمامهما الطريق كشريط طويل.

مع اقترابهما من الجبال، بدأت أفكار ليزي تتجمع حول فكرة واحدة. فكرة جديدة. هي الآن تعي أن هذاالزواج الذي يعتبره إدي التسوية الفضلى لقضيتهما، سيعود عليها بالمنفعة أكثر منه. لقد فاقها سخاءً، ولم يصدق ادعائها بالتخلي عن المنزل.

كان بوسعه تدبير الأموال اللازمة للقضية، وقد باع روايتيه الأولى والثانية لإحدى محطات التلفزة وهذا ما قرأته لشهور مضت في إحدى الصحف، كان بإمكانه مثلاً، تكليف مجموعة من المحامين بالقضية. وفي أسوأ الأحوال يعرض عليها مبلغاً محترماً للتنازل عن حقوقها، وهذا في رأيه ما تسعى إليه.

كانت عرضة للتسكع في عربتها المزرية لسنوات طويلة، ولا يصيبها في النهاية سوى الرضوخ أو الهزيمة، ولكنها الآن ضمنت حصتها.

رفعت قبعتها عن رأسها ووضعتها في حضنها، ثم نظرت إليه، ولكنه كان منشغلاً عنها بالقيادة. نعم، كان سخياً معها إلى أبعد الحدود. تنهدت تنهدة مكتوبة حتى لا يسمعها. تمنت لو لم يطرأ على بالها هذا الخاطر، فهي قد اعتادت فكرة أنها دخيلة فرضت عليه. الأمر الذي كان يسهل معه احتفاظها بتحفظ دائم. ربما تكون مخطئة. إنها لم يستشر محامياً في الأمر. هل أطلعه محاميه على عقم العقد الذي

يحمله؟ وأنها كانت لتربح القضية في ما لو عرضتها على القضاء؟ لم إذن نصحها بتكليف محام من قبلها؟ ما بال هذه الفرحة الزاحفة لا تبارحها، وتلك العواطف الجياشة تتسارع بداخلها، وتكاد أن تغرقها في لججها؟

«فطور الزفاف!» قال مصطنعاً إبتسامة.

فانتفضت قائلة: «لا تفعل! أكره التملق، حتى ولو كانت لأهداف حسنة.»

إنتزع السدادة، فتدفق الشراب خارجاً قبل أن يعمد إلى ملء كأسها.

«لا بأس. تناولي هذا، فسيعجبك حتماً. إعتبري الشراب بمثابة احتفاء بنكائنا الذي اهدانا إلى حل بسيط للمشكلة العويصة.»

رشفت من كأسها ثم ابتسمت ابتسامة عريضة. «لحسن الحظ أن جدتي لم تهب المنزل لأخي، وإلا كان لك رأي مختلف!»

ضحك وقد برز فوق وجنتيه خطان عميقان دلالة عودة الألفة والانشراح.

تشاركا الضحك وقد استسلما لنشوة الابتهاج الذي ساد جلساتهما السابقة في الشرفة. وبينما هما يحتسيان الكأس الثانية، إذا بهدير محرك يصل إلى أذنيهما.

قال إدي: «إبقي هنا. سأذهب لألقي نظرة. قد يكون أحد سكان القرية؛ لن أتأخر.»

لم يكن وحيداً عند عودته، بل برفقة شخصين آخرين. لم يسع ليزي أن تتمالك نفسها لدى رؤيتهما فكادت الكأس

liilas.com/vb3

تسقط من يدها، لولا أنها أطبقت عليها بيدها الباردة وحال ذلك دون تحولها إلى قطع متناثرة.

«اليزابيث! ماذا يجري؟» إنها أمها بفمها المزموم وعينيها المتقدتين غضباً.

«أماه! ما الذي أتى بكِ؟»

«قررنا أنا ووالدك تمضية عطلة قصيرة ههنا. ويبدو من مجرد النظر إلى هذه الأشياء أنك لم تضيعي وقتك لتحولي بيت أمي إلى عش للغرام!»

ففرت ليزي فاها. يا لها من تهمة شائنة! وكيف حضرا دون إخطارها؟ لم يقدما على زيارتها طوال السبع سنوات التي قضتها في مدرستها بإخطار أو من دون إخطار.

«إنه ليس عشاً للغرام! تبدين كواعظ مزعج! لم يعد منزل جدتي. إنه منزلي!»

إستدارت مونيكا بريثويت ناحية زوجها وقالت ببرود: «أخبرها، رونالد...»

إبتسم لزوجته، وصاح: «لا يبدو أنه منزلك، يا اليزابيث. إن قوانين الإرث الفرنسية تختلف عن البريطانية، وهي تقضي بحرمانك من حقك في المنزل، واعتباره من حقنا نحن.»

قاطعته والدتها: «هذا صحيح، يا اليزابيث. لم يخطر ببالي يوماً أن أرى إن كانوا يجرون التعديلات على القوانين الانكليزية، ولكن الآن...» ثم أردفت بحسم... «يبدو أنني كنت مخطئة.»

قالت بغضب: «أماه، كيف يمكنك الحضور، والتصرف وكأنك في منزلك... دون إنذاري؟ نحن هنا نعيش بسعادة... هذا ليس عدلاً!»

إقترب إدي ووضع ذراعه اليسرى حول كتف ليزي، ومد يده للسيدة بريثويت.

«أود تقديم نفسي. أنا إدوارد هولت!» قال ذلك وقد ركز عينيه على والدة ليزي.

أما هي فقد راحت تحدق به بعينيها الباهتتين الزرقاوين. لم يهتز إدي. فقط مد يده مجبراً إياها على التقاطها. جذب يدها بعنف لمصافحة والدها، مبقياً ليزي بجانبه.

«سررنا برؤيتكما، أليس كذلك، يا ليزي؟» سألها بصوت واثق. رنت إليه بارتباك وحيرة. في اللحظة التي اعتقدت فيها أنها قد فهمته، أعادها تصرفه إلى نقطة الصفر.

«تزوجت من ليزي هذا الصباح.» قال وقد أضاءت وجهه ابتسامة جذابة. ثم أردف: «من الطبيعي أن تكون هذه مناسبة عائلية، ولكن بما أنكما بعيدان فقد ارتأينا إتمام الزفاف هنا، وربما عمدنا لاحقاً إلى إجراء المراسيم التقليدية، في انكلترا.» أخرج إدي بعدها الوثيقة من جيب سترته، ليعرضها عليهما.

إعترت ليزي الدهشة. لم سارع إلى اخبارهما بشأن زفافهما؟ وقد جعل الأمر يبدو حقيقياً! لا يعقل أنه أحبهما بهذه السرعة؛ وإلا، ما الذي حدا به إلى التودد إليهما بهذا الشكل؟

نظر إلى والد ليزي قائلاً: «دعني أسكب لكما كأسين من الشراب ليتسنى لكما شرب نخب سعادتنا، أتدبر بعدها أمر إقامتكما في أحد الفنادق.»

«اليزابيث! هذا محال!» قالت والدتها وقد صدمت، وطغى

liilas.com/vb3

على عينيها الغضب. حولت نظرها نحو إدي قائلة: «من المفروض علي تذكيرك، يا سيد هولت...»

ولكن إدي تجاهلها، وقال مقاطعاً: «إسمي إدي! بت الآن أحد أفراد العائلة، أليس كذلك؟ أتسمحان لي بمناداتكما بمونا ورون؟»

كم يتقن دوره! اضطرت ليزي أن تعض شفتها بعنف كي لا تغرق في الضحك.

لم ينتظر إجابتهما السلبية، والتي ارتسمت فوق شفتيهما، فسارع للقول: «إجلسا. الكؤوس في المطبخ، مونا. ينبغي أن تجديها دون عناء.»

لم تصادف ليزي شخصاً، من قبل، ينال من أهلها. دخلت والدتها المنزل بإذعان. يبدو أن إدي نجح حيث أخفق العالم أجمع. أشار على والدها بالجلوس. ثم جلس بدوره دافعاً بليزي ـ التي اعترتها الدهشة ـ إلى حضنه.

«نرجو المعذرة.» قال وقد راح يداعب أذن ليزي إنه يوم زفافنا، وكنا ننشد الراحة والسكينة، أليس كذلك، يا عزيزتي؟» ثم رفع يدها، وراح يلثم أطراف أناملها بحنان.

التفتت ليزي نحو والدها، فأدركت أنه معرض للإصابة بسكتة قلبية في أية لحظة!

«مونا، لقد وجدتها. عظيم. إخدما نفسيكما... كنت أخبر رون أننا سنمضي شهر العسل ههنا. لذا من غير المعقول أن تمكثا معنا، أليس كذلك؟»

لكن، لاح بريق النصر في عيني والدتها، التي كانت تستجمع قواها. خبأت ليزي وجهها فوق كتف إدي لتداري بسمتها. لقد كسب الجولة الأولى، ولكن المعركة مستمرة.

«أخشى أنه فاتكما فهم مغزى كلام زوجي. هذا ليس بمنزل اليزابيث. لا أعلم كم تكلفتما لترميمه...» قالت بغضب، وقد لاحت فوق وجهها ابتسامة لاذعة... «يؤسفني أن أموالكما قد ذهبت سدى.»

مال إدي برأسه، وقال: «سمعت هذه الملاحظات حول القضية، وأظن أن شروح المحامي واضحة. قانون الإرث مختلف حتماً هنا في فرنسا.»

ما هذا الذي يقوله؟ يبدو أنه قد أذعن للأمر. رفعت رأسها ورمقت والدتها بنظرات تحدٍ.

ضغط إدي على كتفها محذراً. «ولكن هذا لا يمنع واقع زواجنا.»

لم يتجنب الحديث عن إتفاقه مع جدها؟ فهذا كان من شأنه أن يجعلهما يلتزمان الصمت. مهما تكن دوافعه، فهو ينجح في دفعهما إلى تنفيذ أوامره، وهو ما لم تحققه طوال عمرها. يجدر بها الآن تسليمه زمام الأمور.

«لا يوجد أي مكان قريب لنأوي إليه.» قالت والدتها بتذمر. «لن يكون لوجودنا أي تأثير، على أية حال. شبان هذه الأيام عديمو الصبر...» وهنا قطعت كلامها، مدركة أنها قد أوضحت مرامها.

«بوسعكما الوصول إلى ألبي خلال أربعين دقيقة.» أجاب إدي، وقد شاب صوته شيء من التهديد. من الواضح أنه لم يعد في وارد المشاجرة. «هنالك فنادق حسنة في الجوار.»

«لا يسعنا الرحيل.» أجابت مونيكا وفي صوتها نبرة النصر. «ثمة قاطرة تقطع الطريق. قد حبسنا هنا.»

liilas.com/vb3 نور

رمقها إدي بارتياب، وقال: «قاطرة؟ هل يعقل؟»

تمتم والدها بازدراء: «تباً للسائقين الفرنسيين. لقد أخذ السائق يتسلق الرابية ببطء شديد، ونحن وراءه. ثم انحرفت القاطرة نحو إحدى الحفر، وتوقفت عن السير. يا للموقف العسير الذي واجهناه، تخيل عربتنا الفخمة وقد سدت عليها الدرب قاطرة تعسة كهذه!!»

«ولكن السائق.» قال إدي.

«أوه!» هتفت أمها. «من الأفضل عدم ذكره! هو من المحظوظين، إذ أنه لم يصب بأي خدش! ومع ذلك إستشاط غضباً، ومن حسن حظنا أننا لا نجيد الفرنسية.»

كانت ليزي مصغية، وقد ارتابت بصحة أقوال أهلها، وكان من البديهي، أن تواجه خداعهما، بغضب شديد، ولكنها شعرت بانها تراقبهما من بعيد، وكأنهما لم يمساها أبداً بتصرفاتهما الشائنة.

أما إدي فقال بلهجة يشوبها الإستياء: «ربما يكون من الصعب تأمين أمكنة للسكن في القرية. قد يشعر الأهالي بالقلق إزاء عدم إستقبالكما. هم عادة مضيافون جداً، ولكنهم ليسوا بحمقى!»

رفع ليزي برفق، وعانقها بحنان حتى تمكنت من سماع دقات قلبه. طبع قبلة خاطفة فوق رأسها ثم تابع حديثه.

«الآن، زوجتي تنشد الراحة، أليس كذلك، يا حبيبتي؟ هلا صعدت إلى غرفتنا لأخذ قيلولة قصيرة؟ سأهتم بوالديك!»

إستدار ومنح ليزي إبتسامة حارة. ظل محدقاً بها لفترة. لقد غمرتها البهجة، حتى تمنت أن يدوم الأمر إلى الأبد!

إصطحبها إلى أسفل السلالم، وعندما ابتعدا عن والديها

استدارت لتهنئه. كم كانت دهشتها كبيرة إذ رأت عينيه اللتين كانتا مليئتين سعادة وشوقاً وقد تحولتا إلى جمرتي نار.

«إدي؟»

«كيف أمكنك، ليزي؟» قال وقد كتم الغضب كلماته.

إنتابتها الدهشة. «كيف أمكنني ماذا؟» سألته بسذاجة.

«يا لهما من وحشين! لا أصدق أنهما بشريان! ومع ذلك أنت لم تخبريني شيئاً عنهما... أخبرتني الكثير عن جديك... كيف حميتهما بهذا الشكل؟» قال وهو يرمقها بنظرات استهجان.

«لم يكن في نيتي حمايتهما!» صرخت وقد هالها أن يزدريها هكذا. فصرحت بالحقيقة التي طالما أخفتها. «ألا ترى، إدي؟ ألا تفهم؟ لم أكن لأحميهما...»

لم تنتظر رده، بل سارعت إلى إرتقاء السلالم. أغلقت الباب بعنف، وأدارت المفتاح بأصابع مرتعشة. لم تعلم إن كان قد لحق بها أم لا. ربما لا، بعد النظرة المريعة التي لمحتها في عينيه. وجدت نفسها عارية وخجلة، فاختبأت.

توارت في الحمام، وسارعت إلى خلع ثوبها. فتحت صنبور الماء، وتركت الرذاذ ينهمر فوق شعرها وجسدها بغزارة. مثل أمامها منظر وجهه وقد ارتسمت فوقه عبارات الاشمئزاز منها.

أجاد تمثيل دوره لدقائق خلت. كان يرمقها بنظرات ولهى وكأنه يريدها... وكأنه يحبها حقاً. ولكن كان كل هذا مجرد قناع وضعه ليهزم والديها.

إستعادت ليزي وقائع النفاق الذي عايشته طويلاً. كان

liilas.com/vb3 نور

من السهل أن تلعب دور الابنة التي يريدها والداها وليس هي. في البدء لجذب إنتباههما... لكسب ودهما. ثم، وقد رضيت بالحقيقة، لدرء انتقاداتهما اللاذعة. ولكنها، لاحقاً، تغلبت على التجربة، وأقتنعت بأن كرههما لها لصدقها، لهو أفضل بكثير من محبتهما، لنفاقها وخداعها.

تجهمت وهي تبعد الماء عن وجهها بيديها. ولكن إدي لم يقم بدوره ليكسب ودهما. إنه في الحقيقة لم يكترث لرأيهما فيه. كان يريدهما أن يرحلا. كان بوسعه إيجاد مخرج لائق للمسألة فيخبرهما أنه ابتاع المنزل من جدها. عندما أسَرَّ لهما بنبأ زفافهما، وهو يحتضنها، كان يخدعهما بهدف... بهدف حمايتها.

شعرت بالحماية والأمان بين ذراعيه. كفت عندئذ عن محاربتهما، ولو لفترة. أدركت أنها الآن فقط قادرة على استيعاب حقدهما. لقد أفادها تصرف إدي، والأحزان تتوارى للمرة الأولى. إنها فخورة لأنها زوجة إدي، وبحبه لها وحبها لها بالمقابل، ولو بصورة مزيفة.

خرجت من الحمام، واتجهت نحو المرآة وهي مبللة.

رأت وجهها الشاحب، وعينيها الواسعتين، وقد تدلى شعرها المبلل فوق كتفيها. إرتعش جسدها فجأة. لقد إنتهت الملهاة الآن... ولكنها ما زالت تعيشها بأحاسيسها. ظنت أنها كانت سعيدة وهي في أحضان إدي لأنها تدّعي أنها زوجته. ولكنها مخطئة. كانت ترتعد، لأنها تحبه حقاً. برغم إرادتها، كانت تحبه بصدق وعمق.

تأوهت وكأنها تتألم. أليس هذا صحيحاً؟ بالتأكيد ولكن لا سبيل لنكران الواقع، وقد تفتح ذهنها لإستيعابه بوضوح.

هي، ليزي بريثويت، وقعت في غرام إدي هولت. بينما هو... إرتسمت أمامها صورة وجهه، وقد علته تعابير الإحتقار.

آلمها كثيراً أن ترى إحتقاره الشديد لها. لن تعتبر نفسها من البشر، إن لم تتوصل إلى جعله يقع في غرامها. لم يكن من طبعها جعل الحب شغلها الشاغل، وقد ينتهي بها الأمر إلى إفساد المسائل كلها. إنما فليس ثمة ما تخسره... ولا أحد لتؤذيه، وهذا أفضل بكثير.

جففت نفسها سريعاً، وارتدت ملابسها، ثم جففت شعرها وجمعته فوق رأسها. من الأفضل أن تسارع في العودة. فقد أصرت على أن تبرهن له أنها قادرة على التماسك، مهما بلغت قساوة والديها عليها. مهما تكن قد خسرت، فما زالت تحتفظ بكبريائها.

liilas.com/vb3 نور

الفصل السابع

التقطت أذنا ليزي أصواتاً مبهمة، أثناء هبوطها السلالم. كان إدي يتحدث بصوت خافت، فصعب عليها فهم كلماته، بينما استطاعت تمييز صوت والدها الأجش بسهولة.

وجدت نفسها تواجه إدي. أتراه يدرك أحاسيسها المرتسمة فوق وجهها؟ إن عادت أدراجها قد يظن أنها تهاب والديها أو تهابه هو... تنفست الصعداء، وتابعت نزولها. لم تكن منزعجة من مواجهة أهلها، على الأقل.

اهتزت أركان الغرفة إذ راح يعبر الأروقة. السلالم تفضي إلى غرفتها مباشرة، فلا سبيل للتواري.

سلط عليها نظره، ظنت أنها رأت غضبه من قبل. وليس منذ وقت بعيد، فقد جعلتها نظرته تتوارى داخل غرفتها، منذ أقل من نصف ساعة، ولكنها أدركت الآن، أنها لم تواجه غضبه الحقيقي من قبل. كانت بشرته حالكة، بينما عيناه تقدحان شرراً.

«ماذا دهاك...؟» سألها بحشرجة، ثم قام بحركة من رأسه. «اصعدي إلى غرفتك الآن. احزمي بعض الألبسة الدافئة وانتظري قدومي.»

أطاعت بصمت. لم تتوقف عن التساؤل عما يحدث، إلاّ عندما فرغت من وضع سترة وجينز وجوارب صوفية في حقيبة صغيرة.

عاد إليها بوجهه المحتقن. أشار عليها بترك الغرفة، فأطاعت وقد وضعت الحقيبة فوق كتفها، ثم أخرج رزمة مفاتيح من جيبه وأقفل بابها.

تمتم بارتياح: «لن يجرؤا على دخول هذه الغرفة.» ثم عمد إلى إقفال مكتبه، وأضاف: «وهذه غرفة أخرى.»

رفع الحقيبة من فوق كتفها وأمسكها بيده، ثم هبطا السلالم. أحست أنه قد أمسك بزمام الأمور، دون أن يتكلم. عليها الآن أن تطيعه وتتجنب مواجهته.

يبدو أن والديها ما يزالان في الشرفة، فلا شيء يدل على ولوجهما الدار. توقف إدي ليرفع بساطاً من فوق إحدى الأرائك، ثم حمل حقيبة وضعت بجانب الباب.

نظرت إليه وقد خرجا، وسألته: «ماذا يجري؟»

لم يكلف نفسه عناء النظر إليها. وهو يتمتم بمرح: «سنخرج لمتابعة احتفالنا حيث الهواء أكثر نقاءً.» ثم سارع بالابتعاد عن المنزل.

هوذا إذن سبب أخذ الملابس... الادعاء بأنهما ذاهبان لقضاء شهر العسل، وهو لا ينوي مشاطرتها غرفته، حتى من قبيل الادعاء والتظاهر. كان عليها المضي في اللعبة إلى النهاية.

قال وقد جذبها من ذراعها بقسوة: «هيا.»

«أين نحن ذاهبان؟ لا يسعك جرّي هكذا!» باتت حرة في التمنع الآن وقد أصبحا بعيدين عن مسمع أهلها.

توقف قليلاً ليطلق ذراعها، وقال: «أنت حرة في العودة إلى هناك، لتبقي معهما إذا كان هذا ما تريدينه.»

فأجابت: «بالطبع لا! أردت فقط معرفة وجهة سيرنا.»

liilas.com/vb3

آلمتها نظرته القاسية؛ وكانت تشعر باختناق كلما عاودت النظر إليه، إن حبها يود إعلان نفسه على الملأ... ثمة انقباض كان ينتابها كلما حدجها بنظراته الباردة تلك. لكم يحز في قلبها أن يعاملها بازدراء... وهي على يقين من أن الأمر لن يتبدل.

لم يخطر لها أنها قادرة على التخلص من حبه، وهي واثقة من أنها لو حاولت ذلك، فلن تصل إلى نتيجة. كانت تجبر نفسها على التغاضي عن معاملته السيئة لها، ولكن هذا كان قبل أن تدرك حقيقة مشاعرها تجاهه. لا سبيل الآن للانكار، فهي تتمنى بضع ابتسامات جافة. أما وقد حرمها من كل هذا، فقد شعرت بنقص كبير.

تجاهلها وقد راح يخطو بخطوات ثابتة وصاخبة.

لم تعد تحتمل الصمت، فبادرت إلى القول: «أعتذر عن الازعاج الذي سببه والداي.»

قال دون أن ينظر إليها: «لم يزعجاني البتة.»

هي إذن سبب كدره هذا. عضت طرف لسانها بقسوة.

كان يسير بسرعة، فاضطرت أن تجري قليلاً لتبقى بمحاذاته. سلكا درباً وعرة صعوداً باتجاه الجبال.

سألته وقد بدأت تتبين الطريق: «أذاهبان نحن إلى كوخ الراعي؟»

«إنه الحل الوحيد.» أجاب بمرارة. «الفندق الوحيد في المدينة يبعد أميالاً عديدة من هنا.»

«ولكن...» أدركت أنه لن يكون راضياً عن قولها، ومع ذلك لم تكترث، فهو لم يرض عن كل ما قالته. «المشكلة هي، إدي...»

«كفاك تذمراً. بوسعك العودة إلى أحضان والديك إذا شئت.»

«إنني جائعة، إدي. إن كنا سنمضي الليلة هناك فإنني حتماً سأتضور جوعاً.»

فأجاب بنفور: «إنك تعرفين الرد. عودي أدراجك، فلا بد أنهما جهزا لكِ حفلة خاصة كمفاجأة، وأعدا قالب حلوى من ثلاث طبقات.»

آلمتها سخريته. ما الذي قاله لها؟ إنه لا يطيق حمايتها لهما؟ حاولت تفسير الأمر، فهل عساه قد فهم؟ لم تكن لتحميهما بصمتها، بل تحمي نفسها، وكبرياءها. إنها لا تطيق فكرة اطلاع الناس على طباع والديها السيئة، أو أن يأخذها الباقون على جريرتهما. حدث ذلك مرة أو اثنتين، في الشارع أو في عطلة ما؛ فقد تصرفا بفظاظتهما المعهودة وهي برفقتهما، ورأت الناس تبتعد عنهما، ونظرات الشماتة والمهانة في أعينهم وقد نالت منها نصيبها.

رفعت عينيها إليه، فرأته سارحاً بنظره إلى ما وراء الأفق، واضعاً يديه في جيبي سرواله. كان يبدو كعالم آثار وقد ألقى فوق كتفه بالبساط الملون والحقيبة الصغيرة. كانت إمارات الغضب بادية بوضوح على وجهه.

تنهدت وهي تحاول اللحاق به، إذ كان يسبقها دوماً بخطوة أو اثنتين. كان بوسعها أن تطلب إليه الإبطاء، ولكنها تأبى استجداء عطفه، وهو ما لا تريده ولا تحتاجه.

أمضت زميلة لها ذات عام العطلة المدرسية بضيافتها وبطلب من والديها، وقد تصرفا أمامها بشكل لائق إنما غير

liilas.com/vb3

كاف. وقد راحت الزميلة بعد عودتها تشيع بين الطالبات تفاصيل المعاملة السيئة التي تتلقاها ليزي من والديها. كانت الطالبات، بحكم أعمارهن، يملن إلى اللطف والرقة. وقد داومن على منحها قطع الشوكولا، وكأنها كلب أجرب بحاجة للتعزية، وكن أيضاً يربتن فوق كتفها باستمرار. وقد وصل بها الأمر، أن بدأت ترتاب بأنهن قد يلجأن إلى إذلالها إن سنحت لهن الفرصة، بحجة التخفيف من عذابها.

كانت ليزي تشعر بالزهو وهي ترى عطفهن عليها، مما يعني التسليم بالأمر. وظلت تعاملهن على هذا الأساس، إلى أن فقدت أعصابها ذات يوم بسبب إحدى الطالبات، تغيرت بعدها معاملة زميلاتها لها كلياً.

كان الكوخ مظلماً، أرضه من التراب الجاف، وفيه طاولة، ومقعد وخزانة صغيرة، وسرير خشبي، بالإضافة إلى مدفأة. لا كهرباء فيه، ولا حطب في المدفأة.

سألته: «أظنك قلت إنه مأوى للمسافرين؟ قد يموتون من البرد إن انتهى بهم المطاف ههنا!»

«يجلب الراعي ما يحتاجه كلما يحضر إلى هنا، والقرويون يتحققون من وجود الوقود متى برد الطقس.» قال إدي وهذا هو يفتح الخزانة.

راحت ليزي تتفحص الفراش، وقد وضع فوقه غطاء رمادي، رفعت طرفه لترى ما تحته، فرأت كيساً ضخماً، بني اللون، حشي بمادة عفا عليها الزمن، طرقت عليه بقوة فتصاعد منه الغبار ليملأ المكان.

قالت متعبة: «هذا الفراش قذر جداً.»

استدار إدي ليواجهها، وقد تشاغل عنها بوضع الشموع على الطاولة.

«إنه مصنوع من القش.» قال هذا واقترب ليتفحصه. «لا شك أنه أعد في الحرب العالمية الأولى، وهو لا بد محشو بمواد لينة. رفعه بعدها ثم ألقى به أرضاً بكل قوته. دفعها الغبار الذي تصاعد إلى العطس، وقد أصبح الفراش ممداً على الأرض. مزق إدي إحدى زواياه ليطلع على محتواه.

تمتم بانفعال: «اعتقد أنه ريش. ومهما يكن، فقد أصبح الآن كتلة من الغبار.»

فقالت: «سأشعر وكأنني نائمة فوق أكوام من السماد.»

نظر إليها شذراً، وقال: «بوسعك الانسحاب.» احتقن وجهها، وتسارعت الدماء في عروقها. لقد عانت في يومها هذا ما يفوق احتمالها.

صاحت: «كفى! لديك حرية توجيه ما شئت من الإهانات إلي، ولكن، أرجوك أن تفعل هذا، دون أن تشملني مع... معهما!» قالت هذا وهي تشير بحنق نحو مون آبري.

هز كتفيه، وقال: «وما الذي جعلك تظنين أنني لا أهينك شخصياً، يا ليزي؟»

أجابت من خلال ثورتها: «إنني واثقة من أنك تفعل. كنت تداعبني وتشاركني كؤوس الشراب عند وصولهما. كنت على الأقل، تدعي عدم وجود عداوة ما بيننا. مع أننا كنا كذلك ولو بشكل راق. أما الآن، وقد توصلت إلى سبر أغواري، أجدك عاجزاً عن مواصلة الملهاة التي بدأتها، أليس كذلك؟»

عقد ذراعيه ووقف يتأملها. تباً، يتكرر الأمر ذاته دوماً

lilas.com/vb3 نور

معه، فتفقد أعصابها بينما يحتفظ هو بهدوئه، وكأنها بالنار التي تتأجج بداخلها تصيبه بالبرودة.

راح غضبها يتفاعل أكثر فأكثر.

«ويحك، يا إدوارد هولت!» صرخت بغضب. «لن أحاكم بسبب عائلتي! لقد دفعا بي بين أحضان المربية ولما أبلغ بعد الأسبوع من عمري، وهو أفضل عمل قاما به لأجلي. وإن خطر لك أنني كنت طفلة محرومة، فاعلم بأن مربيتي كانت حنوناً جداً، تصطحبني لزيارة جديّ وتطمئن للمعاملة الحسنة التي أتلقاها في المدرسة. وكما ترى، كانت نشأتي طبيعية جداً، فلا يخطرن ببالك، إذن، أن تعتبرني مثلهما!»

خرج عن هدوئه فجأة ليهتف بصوت جهوري: «كفاك حماقة، يا ليزي! لا أعتقد أنك مثلهما، بالطبع! وهذه هي...»

أردف بمرارة: «... المشكلة.»

حدجته بنظرة ثاقبة وقالت: «ماذا تقصد بذلك؟»

أدار لها ظهره، ثم قال وقد وقف أمام النافذة: «انسي الموضوع، يا ليزي.»

ولكنها باتت عاجزة عن التراجع. الإرهاق، أحداث النهار، إدراكها بأنها قد وقعت في غرامه، كل هذا اجتمع ليشكل عاصفة عاتية من الانفعال.

«أنساه؟ أنسى ماذا؟ أنسى أنك اقترحت أن نعقد هدنة؟ كنا على وفاق تام قبيل وصولهما، والآن تأنف النظر إلي، وهذا ما يدفعني إلى استنتاج أنك تعتبرني حقيرة مثلهما، وتعتقد ربما، أنني طلبت إليهما الحضور لإهانتك، أليس كذلك؟»

لَمْ يُجبْ. بل دنا منها، وأمسك بكتفيها بقوة، وعانقها.

أصابها ذهول تام، وأدركت أنها، هذه المرة، لن تقوى

على المقاومة، مهما بلغ حجم غضبها. لم تعد تهتم إن كان يحبها أم لا، أو حتى غاضباً منها. إنها تحبه، وعليها أن ترضخ للأمر.

سألها وهو يعبث بشعرها: «ليزي؟»

لم تجب، ولكن جاء صمتها بمثابة رد كاف.

حل عقدة شعرها، وتركه ينسدل بشموخ فوق كتفيها، فأحاطت بوجهها هالة مشرقة. وراح يعانقها برقة...

حملتها مشاعره إلى عالم واسع من المشاعر الحسية، فندت عنها آهة تحمل معاني الغبطة، ثم غابت في دوامة من السعادة، قبل أن تلقي بنفسها داخل النفق البهيج، الذي كان قد سبقها إليه.

«أوه، ليزي...» قال بحنان. «لِمَ لَمْ تخبريني؟ لم أكن أعلم أنها تجربتك الأولى...»

هزت رأسها، وقد دفنت وجهها في صدره: «كان الأمر رائعاً...»

إلتزم الصمت وقد ضمها بذارعيه يحميها. لا أهمية للكلام. بقيا مستلقيين فترة طويلة، يرقبان السحب وقد بدأت الظلمة تغشاها، ولاح ضياء خافت في الأفق البعيد. وارتعشت ليزي إذ شعرت بالبرد.

التفت إدي نحوها، قائلاً: «كم هو لطيف منظر غروب الشمس. ينبغي أن أجهز المصباح وإلاّ داهمتنا الظلمة.»

أومأت برأسها موافقة، وراحت تنظر إلى جسده وهو يخطو داخل الكوخ. كان وسيماً، وقد أسعدتها فكرة أنها أصبحت زوجته. بات الأمر شائكاً الآن وقد اكتشفت أنها أحبته، ولو من طرف واحد، وغمرتها السعادة إذ أنها على

liilas.com/vb

الأقل تمكنت من إظهار أحاسيسها بكل جوارحها، خلال أنشودة الغرام التي تشاركاها.

شعرت بالبرد، وبحاجتها إلى الدفء، خاصة وأنها ستمضي ليلة مضنية قبل العودة إلى دارهما. تساءلت إن كان إدي يتوقع أن تشاطره غرفته من الآن وصاعداً؛ وكيف عساها ترفض؟ وكيف تخفي عنه حبها وهي بين أحضانه؟ لقد نال منها، وأرضت أهواءه، على الرغم من أنه كان قاسياً تجاهها. لقد ارتكزت علاقته بها على أساس احتفاظه بالمنزل، وبالتالي، وحدته.

حاولت جاهدة وضع حد للأفكار المضطربة التي اجتاحتها الآن. لا أهمية لما حصل أو سيحصل، فقد أقامت علاقة مع إدي، وسيضمها بين ذراعيه متى غادرا الكوخ ويخاطبها بحنان فائق. فلتنس الماضي والمستقبل، هذه الليلة على الأقل. هذه اللحظات المعدودة لن تنساها ما عاشت.

خرج حاملاً المصباح بيد، وال[illegible]خرى.

تنازعتها أفكار بين مؤيدة ورافضة لفكرة رؤيته لها وهي ترتدي ملابسها اتقاء للبرد.

«أنظري» قال وقد أخرج علبة صغيرة من الحقيبة. «بسكويت. وجدتها في الخزانة. لن نموت جوعاً، على الأقل.»

تناولا البسكويت مع آخر شعاع للشمس.

سألته ليزي: «أين سننام؟».

تنهد إدي قائلاً: «ذلك السرير لا يصلح البتة. أشعر بالظمأ، ولا توجد مياه هنا. أتودين القيام بنزهة ليلية، يا ليزي؟»

الفصل الثامن

إستيقظا معاً بعيد الفجر. كانا قد أعدا فراشاً فوق العشب من البساط وأغطية عثرا عليها في الخزانة داخل الكوخ. نامت ليزي ملء جفنيها طوال الليل ملتصقة بإدي، وقد احتفظا بملابسهما وجواربهما إتقاء للبرد. نال منها التعب بعد النزهة الليلية التي قامت بها على ضوء المصباح برفقة إدي.

تركزت عيناه على أوراق الشجر المتراقصة فوقهما، بينما راحت هي ترقبه بجفنين شبه مغمضتين. كانت ملامحه هادئة وقد لاح طيف ابتسامة فوق ثغره. ليت الزمن يتوقف، فتدوم سعادتها الحالية إلى الأبد.

أدار وجهه نحوها ليسألها: «أمستيقظة أنتِ؟»

هزت رأسها علامة الإيجاب.

لاحت إبتسامة كسول فوق وجهه، وقال: «أتودين مشاركتي السباحة، ليزي؟ عند الفجر؟ سيكون الأمر رائعاً، أعدك...»

خفق قلبها جذلاً. ولكن يتعين عليها التراجع قبل فوات الأوان، فأجابت: «لست أدري... لا أعتقد...»

ران صمت طويل، وقد عادت عيناه ترقبان أوراق الشجر. التفت نحوها مداعباً خدها بإبهامه، وقال: «هيا ليزي، ليلة البارحة سادها الألم... أريدك أن تعلمي كم...»

بئس الأمر. يستحيل عليها صده. هذا ما عليها التسليم

liilas.com/vb3 نور

به، أما الآن فقد قضي الأمر. جلست لتنزع عنها سترتها.

كانت المياه باردة. إقشعر جسدها لمجرد رؤيته يغطس في الماء، ليصل إلى الضفة المقابلة. يا له من رجل رائع... وفريد. حبها له ينمو باطراد. فلتضع المستقبل جانباً، فحبها العميق الصادق هو ما يهمها الآن. طردت مخاوفها وظنونها، وتبعته سعيدة. على الجهة المقابلة أمسك بها بيد واحدة وكأنها حبل خفيف الوزن.

«تشبثي بي جيداً.» قال بلهجة آمرة. فتعلقت بعنقه بقوة، بينما تمسك هو بالغصن، وضمها إليه بيده الأخرى. وقطعا معاً الحوض ليصلا بأمان إلى الضفة المقابلة.

إستلقيا بعدها بخمول، وقد تشابكت ذراعيهما؛ وأخذت ليزي تشعر بالبرد من جراء الهواء البارد.

«مم...» تمتم إدي، وهو يتأملها، ثم قال: «إنك رائعة...»

غمرت ليزي موجة حبور عارمة. إنها تحبه! ها هي ذي مضطجعة إلى جانبه في أجمل بقعة من العالم، وهو يرمقها بنظرات مثيرة، يجعلها كل هذا تنسى ما بدر منه سابقاً. يكفيها أنه يرغب بها. أصغت إلى دقات قلبه المتسارعة، فتجرأت على معانقة السعادة.

إنتصب واقفاً، وحملها بين ذراعيه ثم سار بها بضع خطوات.

«ماذا تفعل؟» سألته بصوت خافت.

«سنلج معاً عالمنا الخاص.» أجابها.

نظرت إلى وجهه، فرأته محدقاً بها بإمعان. إرتعشت شفتها السفلى وقد غمرتها أحاسيس شتى ومتداخلة، فكانت عرضة في أي لحظة للبكاء.

«في الواقع، يا سيدة هولت.» أردف بسخرية. «أحاول إبقاءك دافئة بينما أعيدك إلى عشنا. فأنت ترتجفين من البرد.»

ضحكت ودفنت وجهها في صدره...

سار حول الضفة بثبات، إلى أن وصل إلى موقع العشب، حيث مددها فوق الأغطية برفق.

إنها ملكه وهو ملكها. وهذا ليس حلماً من أحلام المراهقة، بل واقع ملموس في هذا المكان الصغير وهي مدثرة بالغطاء إتقاء من هواء الجبال البارد. لو أن معاملة إدي لها استمرت على هذا المنوال.

مر عليهما وقت وهما راقدان يتأملان أوارق الشجر، بينما الشمس ترسل خيوطها الذهبية إلى الأرض.

تشتتت أفكارها، إذ استعادت ذكرى وجودها بين أحضانه، بينما انهمك والداها بمطالعة جدول الأرقام، وقد بات الأمر الآن مجرد أضغاث أحلام.

سألته: «أكنت تعلم مسبقاً بأن والدي قد يطالبان بالمنزل؟» لف ذراعه حول عنقها وجذبها برفق، ثم أجاب: «نعم.»

«لم لم تخبرني إذن؟»

«يكتنف المسائل العديد من التكهنات والتأويلات، وهي جزء من التعقيدات القانونية التي ذكرتها، وأنا الذي ظننتها في غاية البساطة.»

جاء دورها في التزام الصمت، ثم سألته: «لم تزوجتني وأنت تدرك بأن لا حق لي بالمنزل؟»

كانت تعلم الرد، وتثق جيداً بأنه لن يتفوه به. ينبغي أن تعتاد تجنب هكذا أسئلة كيلا تثير غضبه.

liilas.com/vb3 نور

«حاولي إيجاد الجواب بنفسك...» أجاب بشيء من السخرية، الأمر الذي جعل قلبها يقفز، هو على الأقل لم يأت على ذكر ما يسيء إليها...

«بوسعك إيجاد الجواب إن استخدمت عقلك الصغير يا ليزي!»

إنه يناكدها. هذا صحيح! إبتسمت قائلة: «عقلي ليس صغيراً!»

«مم... يصعب التكهن بقيمة هذه الخصلات المجعدة...»

رفعت ظهرها متكئة على كوعها وراحت تجمع بيدها الأخرى خصلاتها بشكل ذنب، وقالت: «كما ترى، أملك رأساً حجمه عادي، وبداخله دماغ أكبر من الحجم العادي!»

«ها! هذا بعيد عن المنطق، يا ليزي...»

أرسلت زفرة وقالت: «إن وزن هذا الشعر المجعد قد أثر على الخلايا بمرور الزمن، هل فهمت ما أعني؟»

«تعنين...» تمتم بشيء من الدهشة. «... إنه في الداخل يعتمل ذكاء حاد؟»

رفعت رأسها وقالت: «الرأس الكبير دليل على الغرور لا حدة ذكاء. في حالتي، التعادل سيد الموقف؛ وفي حالتك، قد تشكل القبعات عقبة رئيسية!»

«وما حاجتي بالرأس الكبير؟»

«أوه، إدوارد هارتوود! كل ذلك الإدعاء الساخر؟ المرشح لجائزة هلموت شرايبر العام المنصرم؟ وماذا بشأن المقدمة المتصدرة غلاف كتابك الأول؟ موهبة جديدة فذة... من ألمع وأفضل الكتّاب على الاطلاق...؟ ها! حاول إقناعي الآن بأن لديك قبعة تناسبك!» ثم

أضافت ضاحكة: «القبعات الصوفية لا غير محسوبة.»

دحرج جسده فجأة، مديراً لها ظهره العريض.

ظنت أنه مستمر في لعبته، محاولاً التظاهر بالضيق؛ ولكنه عندما تكلم أصيبت بصدمة قوية.

«ومتى إكتشفت سري؟» سألها بصوت خافت، إنما قوي.

«أنا...» توقفت تلقائياً، وقد اجتاحتها رغبة مفاجئة بالبكاء، متأثرة بتبدل مزاجه المفاجيء. لم يكن لها أن تسأله السؤال الأول... أو تناكده بهدف حثه على التظاهر باعجابه بها فقد كان بديهياً أن تنتهي بهذه الحال.

«أنا...» إنها لا تقوى على إخباره بأنها دخلت مكتبه سراً. «لست أدري. لقد طالعت رواياتك منذ سنوات عديدة، وأعجبتني جداً إذ كانت بمثابة مقاليم جديدة بالنسبة إلي...»

«حقاً؟» استدار، وراح يتأمل الأفق بصمت.

رمقته بنظرات يائسة وقالت: «أجل. إنني آسفة. لم أكن أعلم أن في الأمر سراً، وإلا لما أتيت على ذكره. لكنني لست أجد علة في ذلك، فقد تأثرت بالرواية كثيراً! إبتعت الكتاب الثاني، برغم الاقبال الشديد على النسخة، وقد انتظرت صدور النسخة التالية بفارغ الصبر. وعلى ما أذكر، فقد تم ترشيحك لتلك الجائزة، وقد تحمست لك كثيراً من دون سابق معرفة! إنك كاتب رائع، يا إدي. لم تَفِكَ اللجنة حقك! لا يسعك تصور فرحتي عند إدراكي لشخصيتك...»

جلس وراح يبحث عن قميصه. كان وجهه خالياً من أي تعبير، وقد عاد إلى شخصيته التي عرفته بها؛ تلك الشخصية التي يشوبها شيء من السخرية والجفاء.

liilas.com/vb3

حسناً. إنتهى الأمر الآن. إبتدأت مرحلة العذاب، وهي تدرك جيداً أن لا مفر منها. إنها تعلم أنها ملزمة بتجنبه، ما عدا أثناء الليل؛ وعليها كذلك أن تصون لسانها الأحمق. يجب أن تتعلم كيف تخفي عنه حبها، فلا تطالب بالمستحيل، وتلقي على عاتقه المسؤوليات كافة.

شعرت ليزي بإحباط شديد إزاء هذاالتوتر الذي ساد الجو بينهما.

أزاحت جانباً متاعبها مذ بدأ يعانقها الليلة الفائتة، ودخلت برفقته، عالماً ساحراً. أما الآن فهو يحكم عليها بالخروج منه، وتوقعت أن يبادر في أية لحظة إلى إعداد الحقائب إستعداداً للعودة إلى أرض الواقع الأليم.

أحست بجوع ضار، بالإضافة إلى البرد الشديد. قد يقيم والداها في المنزل لفترة محدودة، ثم ينصرفان فتعود هي وإدي إلى مون آبري وتعود معهما المتاعب القديمة وبشكل أسوأ، إذ باتا الآن متحابين. هل تظل رغبته بها قائمة؟ وفي حال الإيجاب، هل يسعها رفضه؟ وماذا يلي ذلك؟ آخر محاولة تمنّع لها تمت هنا عند حوض السباحة.

أحس إدي بالبرد والتخاذل، وقد جعلته الأحداث الأخيرة يسارع إلى استشارة المحامية للتخلص منها نهائياً. من المؤكد أنه شعر ببعض الدفء بعدما توصل إلى إقناعها بالزواج منه. أحست ليزي بأنه عاد ثانية إلى جو الإسترخاء والهدوء الكسول، إلى شخصيته الحقيقية، بعد إتمام الزواج وأثناء عودتهما إلى مون آبري. تلك الحالة التي لازمته منذ لحظة وصولها حتى اليوم الذي قررت فيه

الرحيل. وتلك الحالة دامت حتى... حتى وصول والديها. شعرت بغثيان مفاجيء إذ أدركت سبب معاملته الفظة لها ليلة البارحة.

أُصيبت بالقنوط مذ وصل أهلها بشكل مفاجيء، وأدهشها أن ترى إدي يواجههما وقد جعلها حبه الذي سلبها حواسها، تغفل عن كل ما يقال ويجري حولها. أما الآن، فقد انجلت أمامها الأمور كافة.

تصرفت مع والديها بخشونة، كردة فعل على أسلوبهما الفظ والجارح. كان إدي يعلم أنه سيأتي يوم يدركان فيه أن لهما حصة في المنزل، وبزواجه منها يضرب عصفورين بحجر واحد إذ يأمن جانبها، وكذلك جانب عائلتها؛ ولا يعقل أن يقدم الوالدان على منازعة ابنتهما وزوجها على منزلهما. أدركت الآن لماذا صعب عليه إقناعهما بأن زواجهما تم كنتيجة حتمية لحبهما المتبادل... ولماذا اصطحبها إلى الجبل لقضاء ليلتهما! لم يكن كريماً معها أبداً، وهو أيضاً لم يحاول حمايتها؛ لقد انصبت إهتماماته على نفسه وحسب.

لا عجب إن كان قد غضب يوم حاولت التخلي عن حقها في المنزل. بزواجها منه ستجعله يأمن جانب والديها اللذين لم يكافحا يوماً لكسب عيشهما، ولم يخرجا من الدنيا سوى بتلك العربة المزرية. هما، أيضاً، مؤهلان لأن يكونا خصمين في المحاكم لا يستهان بهما، وقد بدر منهما ما جعله يدرك أن وجوده أجبرهما على لجم نفسيهما، ولكن الأمر يختلف حتماً لدى عودتهما إلى منزلهما!

liilas.com/vb3

لا بد أنه صدم بشدة لدى معرفته أي نوع من الآباء هما. لم يسعها إخباره المزيد، يوم اتهمها بحمايتهما... وهو ما سبب له ثورة عارمة.

أرتدّت عليه نتيجة زواج المصلحة، الذي كان مفروضاً به أن يحل القضية القائمة برمتها. فلن يعفيه هذا من خوض المعارك القانونية الطويلة الأجل غير مضمونة النتائج. بخلاف ذلك، حتى يخسر والداها الدعوى، عليه الآن أن يقيم معها ليقطع الطريق على أهلها. ليس المهم أنها ستخرج خالية الوفاض، ولكنه يجهل كل ذلك! إن زواجهما لم يحقق ما كان يُرجى منه، وكانت نتيجته خيبة أمل شبيهة بتلك التي منيت بها يوم وصولها. لا عجب أن يكون متلهفاً إلى الحصول على زوجة بالمعنى الحسي، وهي جل ما سيخرج به في النهاية!

تسرب إليها الدفء فيما هي مستلقية على العشب تراقب الشلال. أحست فجأة برعشة داخلية مفاجئة. وأخذ حلم آخر من أحلامها يتحول إلى كابوس مخيف.

«هيا بنا.» قال إدي بينما راح يجمع الأغطية، ثم ألقى الحقيبة فوق كتفه. خطا بعدها نحو الطريق حيث انتظرها لتنهض وتلحق به، ومن ثم ابتدأت المسيرة.

صعد إلى مكتبه لدى وصولهما، وكان والداها قد رحلا، ولم يتركا أثراً وراءهما سوى في قلب ليزي. قصدت مشغلها وانكبت على عملها لتكسب الطين اللين الشكل الذي يرضيها.

جاء إليها عند الغداء، وقال معلقاً: «الطين رمادي.»

فقالت باسمة: «أجل. ولكنه طين مع ذلك. أستخدمه في صنع الأواني...»

لم يعلق، وخرج إلى الشرفة لتناول الغداء، بينما احتارت هي إما اللحاق به أو ملازمة مكانها. عاملها مؤخراً معاملة حسنة، ويستحسن أن تذهب إليه، وإلا راودته الظنون...

خطر لها خاطر أثناء الغداء. «عدنا قبل الساعة العاشرة، وكان والداي قد غادرا. ليس من عادتهما...»

حدق فيها بثبات وقال: تدبرت الأمر إذ جعلت أحد المحامين يتصل بهما ويشرح لهما بعض المواد القانونية، بما فيها تلك المتعلقة بانتهاك حرمة الآخرين في فرنسا. وأيضاً اتصلت بإحدى المؤسسات لتعمل على رفع القاطرة عند الفجر، وهكذا تكون خياراتهما محدودة.»

قالت: «أوه. ثم وضعت يدها فوق ثغرها لتخفي ابتسامتها. لم تكن فرحتها نابعة من كونه تغلب على والديها، بل لأنها أدركت أنه اختار إقامة علاقة معها، وقد كان قادراً على العودة بها إلى المنزل في اليوم ذاته. هل يسعها أن تتخيل أنها ستكون قادرة على رفض الإستمرار في علاقتهما؟ وجدت نفسها تتلهف على العشاء.

لم يتناول العشاء معها على الشرفة تلك الأمسية، بل صعد إلى مكتبه، بحجة أنه منشغل جداً، ثم توجه إلى سريره فوراً.

سرت ليزي بعودتها إلى العمل. أمامها طلبات كثيرة بحاجة إلى تلبيتها؛ حاولت أن تعمل لبعض الوقت يومياً، وكان هذا نوع من العزاء لروحها.

تصورت في مخيلتها شكلاً لإناء مسطح، وأمكنها رؤية

liilas.com/vb3 نور

كافة تفاصيله بوضوح. حاولت بعد أيام قليلة تجسيده، فقامت بصنع أوان عديدة ولم يكن بينها ذلك الذي تخيلته. كانت تدع كل قطعة تصنعها تأخذ شكلها الطبيعي صارفة النظر عن الاناء الذي كانت تنشد صنعه. كانت تعلم أنها مبتكرة ولكن إلى حد ما، فمهمتها تتمثل في تسهيل الدرب للمواد.

جاء إدي يراقبها كعادته ملتزماً الصمت، بينما راحت تتعامل مع الطين الرمادي بخفة ومهارة، أو تمزج الألوان لتستعملها ببراعة فائقة.

كان هذا كل ما رأته منه، إذ كان أيضاً غارقاً حتى أذنيه في أعماله. لم تعد تتناول طعامها معه، بل في مشغلها أو غرفتها. ألم يكن هذا ما تعاهدا على القيام به؟ وعلى أي حال، لم تكن راغبة في التحدث إليه، أو حتى في رؤيته.

كانت لتنسى، وهي منهمكة بأعمالها، كل ما يتعلق به، وقفته الجامدة، وهو يراقبها وقد استند إلى الباب، وكماه مرفوعان وعيناه حازمتان؛ كل هذا جعلها تدخل دوامة الكدر التي طالما عايشتها. حاولت بعدئذ تركيز أفكارها وجهودها على العمل الذي أمامها.

إستطاعت تجاهل أمر غيابه لأيام عديدة؛ ومع أنه، هذه المرة، لم يخبرها شيئاً عن وجهته، فقد أيقنت أنه عاد إلى مونبلييه لزيارة محاميته. لم يعد للزمن قيمة، ولم تصب بالأرق، فلم يعد لديها ما تأمل به.

وصل البريد وفيه رسائل ثلاث، فتحتها ليزي على الشرفة وقد اعترتها الدهشة.

«ما الأمر؟» سألها إدي بفتور.

«تلقيت ثلاث رسائل فقط، ولا شيء بالأمس. ظننت أن التأخير مرده البريد، وانني سأتلقى كمية مضاعفة اليوم. أثمة إضراب في البلاد؟ لم تقع عيني على صحيفة لأسابيع مضت.»

«لا» أجاب وقد ارتشف بعض القهوة، ثم إعتدل في جلسته. «أمتأكد أنت؟»

«مم؟ من الإضراب؟ لا. وما أدراني؟ لا بد أنه وقعت أحداث عدة في الأربع وعشرين ساعة الأخيرة.»

«لم إذن.» تمتمت بإنفعال. «قلت لا بهذه الثقة؟»

«لأن أحداث العالم ليست سبب طلباتك المتضائلة.»

حدقت فيه بإمعان، علّ تعابير وجهه تنم عما يدور في خلده، ولكنها وجدته جامداً كالصخر.

«إذن...؟» قالت أخيراً.

«إذن لم يصدر إعلانك في الصحيفة الأسبوع الفائت.»

«ماذا؟»

«لا.»

«لم؟ ماذا جرى؟»

هز كتفيه وقال: «لأنك ما كنت لتعلمي الصحيفة بتبديل اسمك، لدى وصولك، فأخذت على عاتقي مهمة اعلامهم بعنوانك ووضعك الاجتماعي الجديدين، وهذا لمصلحتك الخاصة، يا ليزي...»

قالت وقد اختنق صوتها: «كيف تجرأت؟»

إبتسم وأجاب: «أنت تعيدين علي السؤال نفسه دوماً. من يجرؤ يربح، ويقال...»

liilas.com/vb3

«إخرس!»

«حتماً.»

ران صمت ثقيل بينما راحت تمضغ شفتها بغضب، أما هو فكان ساكناً، وغير مستعد لمواصلة النقاش. ثم سألته متنهدة: «لِمَ فعلت ذلك؟ ألا تحبذ الزوجة العاملة؟ أم أنك وجدت متعة في خنق أعمالي في مهدها؟»

أمال رأسه، وكأنه ينتقي جوابه بحرص، ثم قال: «يرفض الرجال عادة، أن تعمل زوجاتهم، ليتفرغن كلياً لأزواجهن، فما رأيك، يا ليزي؟»

إستبد بها الغضب فصاحت: «تباً لك! أكون حمقاء إن أضعت دقيقة واحدة بجانبك! أخبرني فقط سبب فعلتك هذه! كيف تقدم على عمل مشين كهذا؟ شأني... عملي...»

أشار عليها بالجلوس، وقد خلا وجهه من التعابير، ولكنها عقدت ذراعيها واحتفظت بوقفتها.

قال أخيراً: «تتكلمين وكأن لا فرق بين عملك، وما تقومين به في مشغلك. ولكن من وجهة نظري، فما تقومين به يتطلب منك جهداً يومياً يوازي ست عشرة ساعة، وهذا ما يستنزف طاقاتك، ولكنك تحصلين على المال في المقابل. أما عملك، من الناحية الأخرى، فيشدك إليه، ومع أنه لا يستدعي العجلة، فهو يأتي بثمار طيبة في النهاية من الناحية الإنتاجية، وشبه معدومة من الناحية المالية.»

إنتفضت قائلة: «إذن أنت لا تستحسن فكرة أن أجني بعض المال؟»

«أليس كذلك؟»

نظرت إلى سلسلة الجبال المترامية أمامها، ثم قالت: «ليس هذا بيت القصيد.»

تنهد وقال: «إن أردت مواصلة أعمالك لكسب المال، فستجدين في المطبخ لائحة بأسماء المتاجر الفرنسية الفاخرة التي تتعاطى تجارة الخزف. وقد وافقت كلها على شراء الأواني الفخارية التي صنعتها. مهما بلغت كميتها، ولا حاجة بك للاستعجال. هنالك أيضاً عنوان صالة عرض يتوق أصحابها لعرض أوانيك، شرط أن تتعهدي برفع الأسعار، فزبائنهم يرغبون بالبضائع الثمينة، لأنها تعزز ثقتهم بما يبتاعونه.»

جلست ورجلاها ترتعشان وقلبها يخفق بقوة. لابد أنه يكترث لأمرها وقد تعرض من أجلها للمتاعب. «لم فعلت هذا؟» همست محاولة إخفاء ما يعتمل بداخلها.

رفع وجهه، فالتقت عيناهما، وراعها أن ترى خلوهما من أي تعبير. قال متهكماً: «المال... النجاح... حسناً، يا ليزي... بإمكانك نيلهما بأي وسيلة ترتأينها، فتريحينني من أعبائك. أظننا الآن ملزمين بمناقشة أمور أكثر إلحاحاً.»

وجدت نفسها تدفن في أعماقها آمالاً كاذبة، ثم سألته بضعف: «ماذا تعني بأمور أكثر إلحاحاً؟»

«الطلاق.»

lilas.com/vb3 نور

الفصل التاسع

«أنت... أنت قصدت مونبلييه لبدء الاجراءات؟»

«ذهبت أستشير محاميتي في بعض المسائل، وطلبت إليها البدء بالاجراءات. أجل.»

«وكم سيستغرق الأمر؟»

هز كتفيه وقال: «فترة طويلة، فهذه المسائل تتم ببطء شديد.»

«مفهوم.» قالت ليزي وهي تنفخ خديها، ثم أردفت: «أنا... لست مضطرة للبقاء هنا خلال الأشهر الستة القادمة، خاصة وأن عقدي قد أصبح باطلاً.» جاء صوتها كئيباً، بينما كانت تتوقعه حازماً.

«لا، لن تفعلي.» قال بحنق.

هو ذا السبب إذن! ذهب غضبها بالقنوط الذي إنتابها.

تابعت ببرود: «مهما يكن. نحن الآن زوجان، ولا أعلم كيف يكون موقف الرجل حين تهجر زوجته المنزل الزوجي، وهو ليس بالأمر السهل، على ما أعتقد.» ثم أردفت وهي تحدجه بنظرات ثاقبة: «هذه المسائل تتم ببطء شديد...»

ويحه. لم يجب. شعرت بدافع قوي يحثها على إلقاء الرجل داخل الأتون الذي يستعر بداخلها. ولكن، ماذا عساها تقول لتؤثر عليه؟

قالت بانتقاد جارح: «من المؤسف أننا أضعنا فرصة

إجراء فسخ للزواج بتوطيد أواصر العلاقة ما بيننا. كان الأمر ليتم بشكل أسرع.»

أمال رأسه مفكراً، أجاب وقد لاح طيف إبتسامة فوق شفتيه: «أشك بذلك...»

تنهدت، إن عجزت الكلمات عن الإيفاء بالمطلوب، فستلجأ للحركات. إلتزمت الصمت المطبق، ذاك كان جوابها! قررت ألا تبارح مقعدها. المناقشات دوماً تؤدي بها إلى ثورات الغضب العارمة، وهي ستلازم مقعدها حتى هبوط الظلام، إن لزم الأمر؛ وتضطره إلى تسليم سلاحه في النهاية.

تأوهت بأسى إذ خطر لها أنه أعلم الصحيفة بتبديل إسمها مجبراً إياها على المغادرة! يا له من ماكر لعين! كم أنها حمقاء إذ وقعت في هوى رجل يضمر لها السوء.

رفع حاجبيه بريبة، وهم بالكلام فأوقفه رنين الهاتف داخل المنزل.

إنتصب واقفاً بتكاسل، وقال مبتسماً: «إن سمحت لي، ليزي، سأجيب على المكالمة.»

دخل المنزل، ولكنه لم يعد. بوسعها ملازمة مكانها حتى يحل المساء، ولكنه لن يعلم بالأمر.

بدأت حدة غضبها تخف. كم تكره أن تلجأ إلى الحقد. ومع مرور الوقت بدأت تشعر أن إدي، بصورة ما، ضحية بريئة؛ إنه كاتب لامع وجل ما يطلبه الوحدة. لا يحق لها لومه، فهي تعلم أن عمله يحتاج للحرية الذاتية. على أي حال، هي التي أصرت على البقاء، ومن العبث وضع اللوم عليه إن

liilas.com/vb3

أقدم على حل المسائل بما يتوافق ومآربه الخاصة... حتى ولو تم الأمر على حساب مصلحتها. ولم يدهشها غضبه إذ مني بالفشل.

يجب أن ترحل، تحزم متاعها وتجد لها مكاناً آخر. ولكنها عاجزة، إذ لا مكان لها تقصده، وحبها لإدي يثنيها عن الرحيل، يكفيها أن تلتقيه في السوق مرة كل عام.

سألت في القرية عن منزل للايجار، ولكن البقال أكد لها ما سبق وقاله إدي: «لا يوجد منازل شاغرة، ولا أعلم السبب؛ لعلنا سناجب، ندَّخر تحسباً للشتاء البارد. وعلى أي حال، كل المنازل، والمرائب والمزارع...» هز منكبيه، وأضاف: «مملوءة من سقفها حتى أرضها.»

دخل المشغل ذات يوم حار جداً، وكان العرق يتصبب من جبين ليزي بغزارة، فلم تلحظ وجوده. نجحت هذه المرة في جعل الطين يتخذ الشكل الذي رسمته في مخيلتها... لو أنها ترفعه قليلاً...

«ليزي؟»

«إخرس! إخرس!» زمجرت من بين أسنانها، وهي لا تجرؤ على رفع وجهها كيلا تفسد عملها. أعلى قليلاً... الطين رائع اليوم... قليلاً بعد... هكذا...

إنتظر بصمت إلى أن أوقفت الآلة وراحت تتأمل الإناء.

«لم أقصد مقاطعة تركيزك على عملك.» وأومأ نحو الإناء. «هذا الشكل مدهش.»

ظلت منكبة على عملها. يبدو أنه يتفهم سبب نفورها قالت متنهدة: «تقريباً... فحسب.»

كان قد أحضر لها بعض الرسائل التي تتعلق بالعمل. إن آنا لم تكتب منذ فترة بعيدة، ولكنها عللت الأمر بأنها كانت السباقة إلى مقاطعتها. إعتادت البوح بأسرارها لآنا ولا يسعها إخفاء شيء عنها الآن.

قفز إلى ذهنها الكلام الذي ذكره عن مقاطعة تركيزها؛ قد فهم إذن؟ حسناً، هذا واضح. إنه كاتب، وأصحاب المهن الخلاقة يملكون هذه المزايا المشتركة. لم تحاول قط إزعاجه أثناء عمله؛ وخطر لها أنه نادراً ما كان يحادثها إذ يحضر لمراقبتها وهي تعمل... توصلت إلى قناعة مفادها أنه يقدرها كفنانة ما لم يكن يحترمها كإنسان...

عادت ونبذت هذه الفكرة. إن فكرة السماح لنفسها بأن تتصور أنه مستعد للقيام بأي شيء لإرضائها، لهي فكرة هدامة وعقيمة. فهو لم يحدثها لأنه ليس لديه أي شيء يقوله لها. إنها دخيلة عليه، ومن العبث أن تطلق العنان لآمالها الكاذبة.

عادت إلى إنائها. ماذا قال؟ مدهش... ولكنه ليس كذلك. سرحت أفكارها وراء ذكرى اليوم الذي قضته معه عند الكوخ. ماذا قال يومذاك؟ «وفي النهاية، ربما، نظرة إلى الوراء فيرى المرء أنه في كل ذلك الصراع، يكمن الحلم الذي طالما أعتقد المرء أنه سراب... أو شيء من هذا القبيل. فهل يتفق أن تعود إلى ماضيها بعد عمر طويل لتجد أن الحلم مخبأ هناك؟ غير معقول! ضحكت باستياء، فهو على الأقل معرض للأخطاء أحياناً.

حاء إليها بعد أيام، وكانت تخرج الإناء من الأتون.

liilas.com/vb3 نور

سألها: «إنه الذي إنهمكت بصنعه ذاك اليوم، أليس كذلك؟»

سألته: «كيف عرفت؟» لقد بدا الإناء مختلفاً جداً، وقد صقل بشكل رائع.

هز منكبيه وقال: «ربما بسبب شكله. لست أدري.» ثم نظر إلى جوفه وأردف: «إنه أفضل الآن، وألوانه رائعة.»

سألته باندفاع: «أيعجبك؟ تفضل...» وقدمته إليه. «أرجوك، إنه هدية مني.»

حدق بها ثم بالأناء وهز رأسه ببطء.

السبب الوحيد لاحجامها عن سحق الأناء، كان رفضها لأن يدرك حقيقة مشاعرها، فالألم الذي تعانيه مسألة شخصية بحتة.

هل تنصرف أم تبقى؟ جلست قبالة آلتها ذات يوم حار. تجمعت غيوم سوداء في الأفق البعيد، وربما كانت نذير عاصفة مرتقبة. في الواقع، أحست بوعكة وقد فوجئت بالأمر. لطالما ادعى أصدقاؤها أن الطقس العاصف يشعرهم بالكدر، ولكنها لم تختبر هذا الشعور سابقاً. ولكنها اليوم تشعر بتوعك صحي. أحنت رأسها حتى لاصق ركبتيها، وملأ طنين حاد أذنيها، ما لبث أن اختفى. ساءت حالتها وقد رفعت رأسها، وراحت تتلمس الطريق إلى غرفتها وهي تترنح.

شعرت بتحسن وقد أخذت حماماً بارداً، وجرعت كوباً من الماء. إتخذت الأمور بعد الحمام منحى جديداً، فقد برزت شرايين زرقاء حول نهديها، وبشكل واضح. أقلقها هذا

التطور، خاصة وأنها أحست بوخز في نهديها مؤخراً وهي تستعد للنوم. إلتقطت مفكرتها وجعلت تتصفحها بهدوء...

عاد الطنين إلى أذنيها، فرقدت في فراشها وهي تجهل إن كان تحققها من الواقع الأليم دفعها إلى ذلك، أم هي حالتها الصحية...

أدهشتها الإثارة التي غمرتها، فلم تخطر على بالها يوماً مسألة الأطفال. إنما ذهلت عندما أسرت إليها آنا بأنها تتوق لإنجاب طفل. راودتها مراراً أحلام الهوى، وهي بعد طالبة مقصية عن العالم الخارجي؛ ولكنها لم تتصور نفسها يوماً تضم لفافة صغيرة إلى صدرها، خلال تلك الأحلام.

تراءى أمامها المشهد جلياً، فارتعشت. ولسبب ما، لم تدع تأثرها بمعاملة إدي السيئة لها يفسد عليها تمتعها بتلك «الساعات الهانئة.» أحست بحبه لها في تلك الليلة التي قضياها معاً، وبحاجته إليها.

ولم يحصل كل ذلك إعتباطاً، بل لأنه أحبها، لكيانها. أقنعت نفسها بأن الذي تم بينهما ما بين غروب الشمس وشروقها لهو مسألة حتمية.

بدأت تشعر بالحب تجاه الجنين الذي في أحشائها، ولكن ينبغي أن تخفي الأمر عن إدي، فهي ترفض أن تكون علاقتهما مبنية على أساس الاحتفاظ بالطفل، وهو ما تجده مكدراً للغاية. إلتقطت بيدها إحدى رواياته التي تحتفظ بها بجانب سريرها، وألقت نظرة على بضع صفحات، لكم يحتاج إلى وحدته. إن هو عَرف هذا السر، فلن تكون أفكاره مشتتة لأشهر قليلة فحسب، بل لبقية عمره.

liilas.com/vb3

إتخذت قرار الرحيل بعد مرور أيام، فعادت ووجهتها الشمال، ولكنها قصدت مونبلييه لقضاء ليلتها في أحد فنادقها، على أن تكمل رحلتها في الغد. ستقصد لندن، حيث تكون بعيدة. تمكنت من نقل الكثير من متاعها إلى العربة؛ وقررت الطلب من آنا إحضار ما تبقى منها، أو تكلف إحدى شركات النقل بذلك، فلديها من المال في المصرف ما يكفيها للإقدام على خطوة كهذه.

على أي حال، ستسلك درباً مغايرة كيلا تمكنه من العثور عليها، وأقنعت نفسها بأنها تقدم على ذلك إكراماً لطفلها.

عندما حاولت الإنطلاق إلى كاليه، رفضت عربتها أن تسير، وعثرت بعد جهد على مرآب لاصلاحها. أخبرها الميكانيكي أن اصلاحها يتطلب بعض الوقت، حيث أنها من الطراز القديم جداً، والذي لم يعد يرغب به أحد...

عادت إلى الفندق بانتظار إصلاحها. وعثر عليها إدي، بعد أربعة أيام. كانت مستلقية على سريرها وقد تمكن منها الاكتئاب والارهاق. لم يطرق الباب بل فتحه ودخل.

كان بحاجة للحلاقة، وقد شحب وجهه، وتجعد شعره. اهتزت مشاعرها لرؤياه، ولكنها عادت وذكرت نفسها...

«ماذا تفعلين هنا؟» سألها بصوت متحشرج.

وقفت. «ماذا برأيك؟ إنني راقدة في السرير.»

«تباً!» اقترب منها وأمسك بكتفيها وراح يهزها بعنف مما جعل خصلاتها تغطي وجهها.

أزاحت شعرها، وحدجته بنظرة تحدٍ.

«حان الوقت لوضع حد لهذه المهزلة، يا ليزي! كفي عن هذا التجهم حالاً!»

أجابت: «لست متجهمة!» ماذا جاء يفعل هنا؟ وكيف أمكنه العثور عليها؟

لم يكن ليصغي. أدار لها ظهره وأنزل حقيبتها من فوق الخزانة، التي عمد بعدئذ إلى فتحها، ثم راح يخرج ملابسها بهدوء ويضعها في الحقيبة.

قالت بضعف: «كفى!»

توقف وراح يحدق بالملابس المبعثرة.

سألها بغضب مفاجيء: «لمن هذه الثياب؟»

«لي بالطبع! لمن قد تكون برأيك؟»

رمقها بنظرة سريعة، ورفع يده يسوي بها شعرها المشعث. أرخى كتفيه وقد زال غضبه، رفع بعدها حاجبيه وقال: «حسناً، ليست لتشارلتون هسكت، بالطبع...»

كادت تنفجر بالضحك، ولكنها خافت أن تثير غضبه مجدداً. اعتبرت اقتحامه لغرفتها أمراً مستهجناً، وهي تفضل لو أنه قام بذلك بشكل لائق.»

«إنها ملابسي. ما الغريب فيها؟»

أغلق باب الخزانة بكتفه وأسند ظهره إليها. راحت تتأمل صورته المعكوسة على المرآة الطويلة، وأمكنها رؤية ظهره ووجهه في آن واحد. لمحت تلك النظرات التي عهدتها منه، قد تقع في غرامه مجدداً، ويتضاعف عذابها...

«لم أرها من قبل، وهذا ما أثار إهتمامي.» قال بفتور وهو يختلس النظر إلى الثياب المكدسة في الحقيبة والتي تعود بتصاميمها إلى الثلاثينات.

«كنت أرتديها قبل حضوري إلى مون آبري، ولكنني

liilas.com/vb3 نور

فكرت بأنني لن أكون مصدراً للتسلية، بالسروال القصير والقميص القطنية!»

«مصدر تسلية، ليزي! تلك الملابس تفوق سروالك القصير حشمة بأشواط!»

«لكم أعجبتني ساقاك، وقد ذكرت لك ذلك من قبل؟»

«أجل. ولكنك لم تكن تعني ما قلته، فساقاي باهتتان...»

لم ترد إطلاق العنان لآمالها، فكلامه عن إعجابه بساقيها لن يبدل شيئاً من الحقيقة.

«إنهما باهتتان حتماً، وشعرك أحمر، وماذا أتوقع، برأيك، أن يكون لونهما؟»

رفع يديه، وراح يفرك بهما ذقنه، ثم توجه إلى الخزانة وعمد إلى إخراج ملابسها الداخلية من درجها، ووضعها في الحقيبة، الأمر الذي دفعها للانتفاض.

«ما الذي تفعله؟» سألته محاولة تحويل نظره عن ثوبها الحريري الأزرق، المغلف بالورق الزهري الناعم...

نظر إليها بتجهم، وقال: «أحضرت لك رسائلك. ما الذي دفعني للحضور برأيك؟»

غالبت ضحكتها، بينما أخرج رسالة من جيب سرواله الخلفي. ليس الأمر بدعابة، فالمغلف كان بحالة مزرية، وأمكنها أن ترى من مكانها إسمها المدون عليه بخط أنيق. إنها تعرف جيداً صاحب هذا الخط، وقد فارق الحياة منذ عام ونيف؛ حدقت بالمغلف وقد ملأ الدمع عينيها.

أعاده إلى جيبه وقال: «إقرأيه في طريقك إلى المنزل.»

إنسابت دمعة فوق أنفها، فدنا منها ومسحها بإصبعه.

«هيا، يا ليزي. مدي لي يد المساعدة لحزم الحقيبة.»

أطاعته فغادرت فراشها وجثت بجانب الحقيبة.

إحتفظا بالصمت إلى أن راحت الرانج روفر تسلك درب الجبال الوعرة.

«كيف عرفت مكاني؟»

«سيكلوبس. أو بشكل غير مباشر، على الأقل.»

«العربة؟»

«أجل. إرتبت بالأمر مذ اغرقت المحرك في ذلك اليوم. شككت في أن يكون لمنظم الحرارة علاقة بالأمر. وقدرت بأن العربة لن تصل بك إلى انكلترا، لذا أجريت إتصالات، حصلت خلالها على عنوان المرآب في مونبلييه، والباقي كان سهلاً.»

«أوه.» تلك العربة اللعينة، إنها تعلم أنها ليست أهلاً للثقة.

إستسلمت له كالحمل الوديع، مقنعة نفسها بأنها إنما تفعل ذلك إكراماً للرسالة التي يحملها. على أي حال، هي مضطرة إلى الرحيل حيث أنها تحمل ذلك الجنين في أحشائها، والذي ستظهر دلائله قريباً جداً. مهما يكن من أمر، ينبغي ألاّ يعلم شيئاً.

«هنالك وسائل أخرى لاطلاعي على الرسالة.»

«ربما.»

«لم إذن اخترت الدرب الصعب؟ ليس هذا من شيمك.»

«لأنني مجبر على إعادتكما إلى المنزل، طبعاً.»

تجمدت الدماء في عروقها. «إعادتنا...؟» همست بإذعان.

«أجل. أنت حامل، ألست كذلك؟»

أحست بجفاف في حلقها، فاضطرت إلى ترطيبه بلسانها قبل أن تجيب: «كيف... أعني... ما الذي جعلك تعتقد هذا؟»

إن كنت قررت الإحتفاظ بحملك طوال الأشهر التسعة أو الثمانية القادمة ـ فعليك إجترار آلامك بصمت، خاصة عند الصباح، لأنك تثيرين ضوضاء مريعة...»

اللعنة. إنتابتها الآلام مرتين فحسب، وظنت أنها قد توصلت إلى كتم أوجاعها، ومع ذلك فقد كان هذا هو السبب الرئيسي في اعتزامها الرحيل.

«رغم ذلك، ما الذي جعلك تظن؟...»

«أن لي دخلاً في الموضوع؟ حسناً، ما لم يكن هذا حملاً وهمياً، أوجده حبيبك الوهمي تشارلتون، فإنني اعتبر أن لي دخلاً كبيراً في الموضوع. ألا تعتبرين ذلك؟»

«في الواقع، لا.»

«أما أنا، فبلى. وفي حال قررت تربيته بمفردك، فأحذرك إن أنت إستمررت بعنادك، فستكونين ملزمة على الإقامة وإياه في الغرفة الخارجية، لأنك لن تبارحي مون آبري.»

«عليك إذن أن تخليها من البلوط، وستستدعي محاميتك ذات مساء، لتطلعني على القوانين المتعلقة بالخطف في فرنسا.»

لم يُجِبْ، وظل نظره مسلطاً على الدرب، مع ذلك فقد قدرت بأنه يستشيط غضباً.

زايلها شعور الإثارة الذي رافقها منذ حضر إليها في

الفندق، وعزت تصرفه الأخير، إذ أرغمها على الإستلقاء فوق الكنبة، إلى تعلقه بطفله المنتظر وليس بها. ربما عمد إلى تلفيق هذه الرسالة ليقنعها بالعودة، ومن شأن أي كان تقليد خط جدها الأنيق.

لم تسأل عن الرسالة، مخافة أن تصطدم بالواقع الأليم الذي قد ينتج عنها. ولكنها سرعان ما اعتادت الفكرة، خاصة وأنها تعرضت خلال الأسابيع الماضية لما هو أسوأ بكثير.

أحضر لها القهوة، وجلس قبالتها عاقداً ذراعيه فوق ركبتيه.

«أتقوين على تناول القهوة؟» سألها وقد كست وجهه إبتسامة مرحة.

هزت منكبيها قائلة: «لست أدري. أظن ذلك.»

«ينبغي أن نكون ملمين بتلك الأمور...» قال وقد اتسعت ابتسامته.

«لا تتظاهر بالسعادة، أرجوك! لا أحتمل ذلك!»

«ولكنني سعيد، وهذا فوق إرادتي!»

«أنت لا تفهم، يا إدي. أنا أجهل أصول تربية الأطفال.»

«إعتقدتك أقوى من أن تدعي شيئاً كهذا يقلقك، يا ليزي. كنت تجهلين كل ما يتعلق بالأعمال، ولم يحل ذلك دون نجاحك فيها.»

ماذا يقول الآن؟ «أتقترح بأن أسعى للتخلص من الجنين؟ والأمر كذلك أرجو أن تعود بذاكرتك إلى...؟»

«حسناً.» قاطعها بمرح، وقد أرجع ظهره إلى الخلف وعقد أصابعه وراء عنقه طلباً للاسترخاء. «خطر لي أنك قد تكونين تهيأت. أما تشارلتون...»

liilas.com/vb3

«كنت تعلم أنه لا وجود لتشارلتون!»

«لا. حسناً، أجل. بعد فترة من الزمن، فقد ارتبت بالأمر عندما أخبرتني عن ذاك الروميو الولهان وشككت في أنه مجرد ستار للحقيقة. لكنني تأكدت من الأمر بعيد زواجنا.»

«أنت تلومني إذن!»

«لا، يا ليزي! لقد أردت أن أقيم علاقة معك، ولو أردت معرفة الحقيقة، فهي أنني ليس فقط لم أعد أفكر بالأمر بتاتاً ولكن لو فكرت للحظة بأنك تريدين التخلص من الطفل لشعرت بخيبة أمل كبيرة. لم تجر الأمور بهذا الشكل؟ لم؟ أتلومينني؟»

«لا، لست ألومك بالطبع. وإنني لمسرورة لأن طفلنا سيري النور قريباً، ولكنك لم تفهم...؟»

أنا مسرور وأنت مسرورة. إذن أين المشكلة؟»

«أنت لاتفهم، يا إدي. فأنا لا أجيد تربية الأطفال. فكيف الأمر بثلاثة توائم.

«ثلاثة توائم!» صرخ وانتصب واقفاً بسرعة فائقة. حدق بها بدهشة، وقد فارقت الإبتسامة وجهه. «تعنين. أنك سترزقين بتوائم ثلاثة؟» وبان التهكم في لهجته.

لقد تمكنت أخيراً من حملة على الكلام، وقد قالت ما قالته، مع العلم بأنها لم تعن ما تفوهت به.

«ليس تماماً. لا، حسناً، أعني انني قد أكون...»

«كوني جادة يا ليزي! ماذا قال الطبيب؟»

«لا شيء. أعني، لم أزر طبيباً بعد.»

«إذن كيف...؟»

«إصغ، إدي! أرجوك.» ألقى بظهره على الأريكة، وحدق بها.

«لم أقصد حملك على الاعتقاد بأنني سأرزق بتوائم ثلاثة؛ جل ما في الأمر، أنني قد أرزق بتوائم ثلاثة أو أربعة ربما، مع أنه أمر نادر بالطبع. ولكن ما عنيته هو... أنهم سيكونون بمثابة الهاء لك عن عملك... وإذا اعتبرنا أن طفلاً واحداً قد يشكل مصدراً للإلهاء، فكيف الأمر مع ثلاثة أطفال معاً، خاصة متى كانت الأم عاجزة عن التصرف...»

«جاء دورك للإصغاء، يا ليزي. إنني أحب هذا الطفل مسبقاً... مهما يكن جنسه، وأريده أن يلهيني! أو يلهونني لا فرق.»

تنهدت يأساً. ربما كانت معلوماتها محدودة عن الأطفال، ولكنها تفوقه حتماً في هذا المضمار. «تريده أن يداعبك ويضحكك. بالطبع. ومن ذا الذي يرفض مصدراً للإلهاء كهذا. ولكن هل سبق واعتنيت بطفل يعاني من المغص؟»

«المغص؟ ظننته يصيب الجياد فحسب.»

«والأطفال أيضاً حسناً، البعض منهم؛ ويدفع بهم للبكاء طوال ثلاثة أشهر، دون توقف.»

هز كتفيه وقال: «تحملت منك الكثير خلال الفترة الأخيرة واعلمي يا ليزي أنني أحب طفلتي، وسأحزن متى أصيبت بمغص، واحتضنها بحنان لأشعرها باهتمامي، وأحاول جاهداً تحمل صراخها الحاد.»

أشاحت ليزي بوجهها، كيلا يرى رعشة أنفها. إنها تدرك جيداً أن والديها بعيدان كل البعد عن تلك الأحاديث. سوف تلد الطفل الأكثر حظاً في العالم، فوالداه يحبانه جداً، ولما يكتمل نموه بعد، وهما على استعداد تام لتحمل آلامه.

وقفت فجأة، واتجهت نحو السلالم.

lulas.com/vb3 نور

«ليزي؟» هتف بصوت رقيق. «أين تذهبين؟»

أجابت متنهدة دون أن تلتفت إليه. «اظنني متوعكة بعض الشيء.»

وجدته بجانبها وقد ضمها بذارعه مسنداً إياها، ثم سألها برقة: «أتشعرين بتوعك حقاً؟»

«لا.» أجابت بذلك ثم شرعت بالبكاء.

الفصل العاشر

رفض إدي متابعة النقاش معللاً الأمر بأنها بحاجة للراحة، وأصر على إعداد وجبة خفيفة، ثم قادها بنفسه إلى غرفتها.

غاص قلبها يأساً، عندما اقتادها إلى غرفتها، فهي تمنع نفسها من إدراك حقيقة المشاعر التي اعترتها عندما إقتحم عليها الغرفة في الفندق، وكان يبدو... على غير هيئته، على أي حال.

ما كانت تتوقع أن يصطحبها إلى غرفته، وقد أعادها إلى منزله مجرد غسالة لوليده العتيد. إنه يريد الطفل، ولن يسعه الحصول عليه من دونها.

تناولت القليل من الطعام، وأزاحت الباقي جانباً. بكت فوق وسادتها قليلاً، فمثل أمامها مشهد بكائها فوق صدره.

ماذا قال؟ «بوسعك البكاء فوق كتفي إن شئت، يا ليزي.» لم تكن قادرة على ذلك، فهو طويل القامة. ولو فعلت لجعلت قميصه تتجعد، عاهدت نفسها وهي تستسلم للنوم، على تنظيم شؤون حياتها في الغد، على أن تقوم بذلك بشكل صحيح هذه المرة.

غفت في ساعة متأخرة، أو على الأقل تظاهرت بالنوم في الفترة الصباحية التي تنتابها فيها الآلام. أحست بالجوع عندما استيقظت، واجتاحتها موجة من التوتر وقد راحت تسير ببطء إلى الشرفة.

liilas.com/vb3 نور

ظهر أمامها قبل أن يتسنى لها الجلوس.

سألها: «كيف حالك؟»

«بخير.» أجابت بابتسامة هزيلة. «جائعة.»

«سأحضر الفطور...»

عاد بالفطور سريعاً، مما حملها على الاعتقاد بأنه بدأ باعداد القهوة مذ سمع وقع أقدامها بعدما استيقظت. ولكنها عادت واقنعت نفسها بأنه يقدم على ذلك مدفوعاً بلهفته على طفله المنتظر، وليس عليها.

كان الفطور عبارة عن قهوة وكرواسان وزبدة ومربى، مثل الصباح الأول تماماً، إنما هذه المرة وضع في وسط الصينية إناء مليئاً بالفاكهة، إناء رائع.

قالت مشيرة إليه: «كيف حصلت عليه؟ لقد أرسلته إلى المتجر في مارسيليا. أأخبرتهم بأنني غيرت رأيي أم ماذا؟»

هز رأسه وقال: «إبتعته، وقد تجشمت مشقة كبيرة في ذلك. لم أحجمت عن إرساله إلى المعرض بعد كل الترتيبات التي قمت بها؟»

حدقت به بريبة وقالت: «لكن...» لقد أحجم عن قبول الإناء عندما عرضته عليه! تمثلت أمامها تلك اللحظة الأليمة.

«أراد أصحاب المعرض بيعه بمبالغ باهظة.» تمتمت بحنق. «هذا الإناء مكلف جداً! لا يمكنك استعماله كطبق للفاكهة!»

«إنه لي، الآن. بوسعي استعماله كيفما أشاء.»

تباً، ثم أقصاه بعيداً! كان هذا إناؤها، الشبه مدهش، والوحيد الذي صنعته. لقد عرضته عليه فرفضه بإباء. ها

هو ذا الآن قد ابتاعه، واصبح ملكه. إنه لم يطق فكرة إقتنائه كهدية منها؛ ومع ذلك فقد أسعدها إستعماله له، وعدم وضعه في خزانة الأواني.

حاولت دوماً بيع منتوجاتها بأسعار بخسة، فيتسنى للجميع إبتياعها؛ أما أصحاب المعرض فقد عزموا على بيعها بأسعار خيالية مما يجعلها من الكماليات. حتى المتجر الذي ابتاع منتوجاتها أصر على تسعير الأواني بأثمان باهظة. وفوق ذلك كله، ذهب هو وجعلها تقول خلاف ما تؤمن به، لقد جعل منها كاذبة مرة أخرى!

صبت بعض القهوة في فنجانها وراحت تحتسيها بصوت عال. لقد امتلك إناءها ولكنه لن يتوصل إلى امتلاكها.

«أعتقد أنه يجدر بنا مناقشة الأمور المستقبلية.» قالت بخشونة، وهي تمرر لسانها فوق شفتيها.

«أجل؟» أجاب وقد جلس قبالتها، وراح يحدق بفنجانه.

«لن أمكث ههنا. لايسعك إجباري على ذلك.»

نظر إليها مستطلعاً، وقد اكتسى وجهه بعض الجد والحزن. أخرج بعدها مغلفاً من جيبه ووضعه أمامها على الطاولة.

«ينبغي أن تقرأي هذا، يا ليزي.»

تناولته وأمعنت فيه النظر. إنها مخطئة، هذه الكتابة الماهرة لا تشبه غيرها. هي تعرف جيداً خط جدها، بعد الكم الهائل الذي كان يصلها منه في مدرستها الداخلية.

همست: «من أين أتيت به؟»

«من جان كلود. ترك جدك رسالة لكل منا معه، وكان مفروضاً به تسليمهما إلينا يوم زفافنا، أو بعد إقامتنا معاً

lilas.com/vb3 نور

مدة ستة أشهر. ولكننا أخفينا نبأ زفافنا، كما تعلمين. أما جان كلود فما كان ليصغي للأقاويل التي أثيرت حولنا، إذ أنه ارتبك عندما أرسلت إليه المال... وعلى أي حال، إنتهى به الأمر إلى تصديق مروجي الإشاعات.

«أوه.» قالت وهي تقرأ الرسالة. «كيف علم جدي بانني سأقصد هذا المكان؟»

«يستحسن أن تقرأيها ليزي، وستتضح أمامك الأمور.»

إنه يكتب كما يتكلم، كعادته دوماً. رن صوته الجهوري في أذنيها، وقرأت محاولة استخلاص مغزى كلماته:

عزيزتي ليزي،

بما أنك تقرأين رسالتي هذه، فهذا يعني أن خطتي قد نجحت! أرأيت الرجل الفريد الذي اخترته لك، يا ليزي! إضطررت للقيام بجولة حول العالم لأجد لك الرجل المناسب. لم أكن أتعمد ذلك، ولكنني لا يسعني سوى التفكير بكما معاً، عندما لمحته داخلاً تلك الحانة.

حاولت جدتك معارضتي في البداية، ولكنها عادت ورضخت للأمر. كانت حجتها أنك تستاءين لتدخلي المشين، ولكنني ما قصدت سوى جعلكما تتعارفان، ليس أكثر؛ والباقي في علم الغيب. وإن كنت توصلت إلى قراءة هذه الجملة، أكون مصيباً، إذ لم أجد وسيلة لجمعكما سوى هذه.

كان أفضل رجل قابلته في حياتي، ليزي؛ وقد عقدت النية على جعل مون آيري منبعاً تخرج منه كتب أدبية تكون

بمثابة كنز لا يقدر بثمن. أخبرته بأن المنزل ليس صالحاً للإقامة الفردية! ولفقت له رواية عن اهتمامي بحديقة الجدة، رغم ما عرف عني من ابتعاد كلي عن هذه الأمور؛ ولو أن جدتك سمعتني لكانت ضربتني على رأسي! أسهبت في سرد تفاصيل تتعلق بحاجته لزوجة، وأعطيته مثلاً عن السعادة التي نلقاها أنا وجدتك.

ولكنه توقف عند مسألة احتفاظ ضحايا الحرب الذين التقاهم بكرامتهم وعنفوانهم، معللاً قوله بأن الفرق بينهم وبين الأشخاص العاديين، لهو أشبه بالفرق بين الماء والحليب. وقد عزم على تكريس نفسه لعمله، راجياً تحقيق هدفه ألا وهو إظهار قيمة الأمل الذي لمسه لدى أولئك التعساء.

جادلته مطولاً، فاتضح لي أنه يعني ما قاله، ثم وجدتني أفكر بك، يا ليزي، وبطباعك الحادة، ووصلت إلى استنتاج مفاده أنك أيضاً ضحية حرب، وإن يكن بشكل مختلف، طبعاً. لَكَمْ كان هو محقاً، وسوف تثبت لك الأيام حقيقة قوله.

على أي حال، ها أنت، يا أغلى فتاة عندي، تديرين ظهرك للشبان الذين يخطبون ودك؛ وها هو ذا، الشاب الوحيد الذي بوسعه صهر قطعة فولاذ مثلك دون أن يحرق أصابعه.

توقفت ليزي عن القراءة، وقد امتلأت عيناها بالدموع. لا يسعها الالتفات نحو إدي، رغم ثقتها بأنه يحدق بها وقد عايش كل كلمة قرأتها. ثم اكملت الرسالة:

«كيف كنت لأتصرف؟ كوني صادقة، يا ليزي. لو أنني دعوتكما معاً لتناول الشاي، لكنتما تبادلتما الابتسامات

liilas.com/vb3 نور

بأدب، وذلك دون أن يكترث أحدكما بالآخر. إنني محق. أليس كذلك؟

في الواقع، كنت قد وافقت مبدئياً على بيعه المنزل قبل أن تخطر لي هذه الفكرة، إذ كنت بحاجة للمال لأتوجه إلى غينيا الجديدة. كنت قد اتفقت مع جدتك على منحي توكيلاً يخولني بيع المنزل إن احتجت للمال في أسفاري وقد أبقينا الأمر سراً في ما بيننا، تحسباً لأي تدخل من قبل والديك.

بناء عليه، أبرمنا هذا العقد وقد توقفت قليلاً عند مسألة الحصول على موافقة زوجتي عليه، وطلبت إلى المحامين بعد عودتي إضافة بند إليه. هذا البند ينص على ما يلي: يعرض المنزل للبيع ويوزع المال مناصفة بينكما، وذلك بعد انقضاء عام على لقائكما تكونان فشلتما خلاله في التوصل إلى صيغة للعيش معاً.

تم إعداد العقد بالاسلوب القانوني المعقد، وترجم بعدئذ إلى القانون الفرنسي الذي يفوقه تعقيداً بأضعاف. ثم عمدت إلى طبعه بأحرف صغيرة للغاية وأرسلته إليه بينما كان منهمكاً بقضية نشر كتبه. ذكاء خارق، ما رأيك؟ جاهدنا، أنا وجدتك للتأكد من أن العقد قد وقع وأرسل، وفي قلبينا حسرة واحدة على أننا لن نكون شاهدين على الخاتمة السعيدة.

ولكن لا تأسفي لأمرنا، عزيزتي، فقد كانت السعادة رفيقتنا طوال تلك الفترة؛ إذ اعتبرنا ما فعلناه لأجلكما أفضل إنجاز لنا.

لذا لا تغضبي منا، يا ليزي، فمحبتنا الكبيرة لك دفعتنا

للتدخل في حياتك على هذا النحو. ولم نكن بقادرين على التغاضي عن تأمين مستقبل لائق لكِ، خاصة وأننا ندرك، أن رحيلنا عن هذا العالم الفاني، بات وشيكاً.

والآن ضمنت أفضل رجل في العالم لنفسك، ولحبك، وللعناية بك، فيغنيك هذا عن مشقة العمل لكسب عيشك. كان مجرد التفكير بنجاح الخطة، كفيلاً بإدخال البهجة إلى قلبينا.

«كوني سعيدة، يا حبيبتي، واقرصي إدي عني. مع كل حبي... جدك.»

طوت ليزي الرسالة بروية، وأعادتها إلى المغلف. لم تستطع التفوه بأية كلمة، وسمرت نظرها فوق أصابعها فيما هي تمررها فوق المغلف بتوتر.

قال إدي وقد انحنى نحوها، ورمقها بنظرة ثاقبة: «حسناً؟»

رفعت عينيها إليه. «حسناً؟» قالت بتهكم.

«ما رأيك بالرسالة؟»

«تعرف مضمونها، ولو أنه ترك لك واحدة مثلها، أيضاً؟»

«جداً. لا اظنهما تختلفان كثيراً.»

«لا. لا أعتقد ذلك.»

«ماذا تعتقدين إذن؟»

حدقت به وقد ملأها اليأس، وقالت: «ماذا عساني أظن؟ أظن أن جديَ أطيب مخلوقين في العالم. وقد خطر لهما أن يؤمنا لي مستقبلاً مضموناً قبيل مغادرتهما هذا العالم... ولكن خاب أملهما لسوء الحظ.»

liilas.com/vb3

«أهذا كل شيء، يا ليزي؟»

«أجل.» قالت بلا اهتمام. «أظنك علمت بأمر البند الاضافي عندما ذهبت للقاء المحامية في المرة الأولى، ولكن هذا لن يبدل شيئاً، فأنت تزوجتني لتضمن حقك في المنزل.»

وقف واتجه إلى طرف الشرفة، وراح يتأمل السهول الممتدة تحتها، مديراً لها ظهره.

قطع الصمت قائلاً بغضب: «تباً يا ليزي. أهذا كل ما لديك؟ وأنا الذي انتظرت بفارغ الصبر موعد تسليمك الرسالة وقد ظننت أنها ستدفعك إلى قول... أمر ما! ولكنك أصررت على اعتناق مبدأ التجهم إلى ما لا نهاية! كيف السبيل لاقناعك؟»

عضت شفتها وقالت: «لست متجهمة.»

إلتفت إليها وعيناه تقدحان شرراً: وقال «ألست متجهمة يا ليزي هولت؟ هذا ما بدا لي مذ تزوجنا وأنت تهربين مني. ظننت أنني تفهمت الأمر، وحاولت التحلي بالصبر. كنتِ قد قررت الإحتفاظ بنفسك مصانة للرجل الذي تحبينه، وقد حرمتك من ذلك! ولكن الماضي بات في طي النسيان، ليزي، ولن يسعني طلب الاعتذار منك، وبدورك لن تتوصلي إلى انتزاعه مني.»

لانت بالصمت ولكن ليس لفترة طويلة. «لا أريدك أن تعتذر، ولست بنادمة على ما حصل بدوري. وأكرر بأنني لم ألجأ للعبوس يوماً!»

«ماذا كنت تفعلين إذن؟»

كادت أن تصرخ مجاهرة بحبها له، ولكنها لجمت لسانها في اللحظة الأخيرة.

«لقد كبلتني بالقيود منذ وصولك وقد بدوت طيبة، ثم شرعت تواجهينني كشريرة!»

«كبلتك بالقيود!» صرخت بملء فمها.

«أجل. ذلك الصديق! صدقت قصتك عنه، يا ليزي، وأيضاً إسمه! واعترف بأنني لم أعتبره بمثابة تحدٍ لي، ما عدا مسألة نسبه! خطر لي بأنك ستدركين الأمر في ما بعد... وتأكدت من عدم وجوده بعدما تقصيت عن عائلته المخضرمة تلك!... ومن أن المرأة الوحيدة التي أحببتها خذلتني من أجل... شبح طويل العنق!

يا للغرابة. لطالما تخيلت تشارلتون ذاك بعنق طويل أيضاً، إلا أنها لم تبد تعليقاً وسألته: «لم تكترث لنسبه؟»

«لم أكترث لنسبه، بل اعتقدت أنك قد تكونين أنت من فعل ذلك، أعتقد. فقد ذكرت كلاماً عابراً يتعلق بإسمك يوم التقينا. بعض الناس يعلقون أهمية على أمور كهذه.»

«واعتقدت أنني منهم. فريد!»

«ليزي! أنت بادرت إلى ذكر نسبه، وبكل فخر وإباء!»

«كنت فخورة بالطبع، فخورة بنفسي إذ لفقت كذبة محكمة! لا يسعك تصور مدى المعاناة التي سببها لي لجوئي إلى الكذب.» ثم أردفت بمرارة: «على أي حال، قلت بأن والدتي تعلق أهمية على اسم عائلتنا وليس أنا! والابنة كأمها، هه؟»

«ولكنني لم أعلم كيف هي أمك، يا ليزي، في ذلك الحين! وعندما تعرفت إليها...» توقف فجأة وقد كست وجهه نظرة الغضب المخيفة التي رأتها مرة واحدة من قبل. «عندما

lilas.com/vb3

تعرفت إليها، يا ليزي... أصبت بصدمة، إذ أنني لم أواجه سخطاً مماثلاً في حياتي!»

تجهم وجهه، وتحولت يداه إلى قبضتين مشدودتين.

كانت على صواب إذن... ذووها... اعتقد أن بوسعه الاحتفاظ بالمنزل...

خطر لها أمر مفاجىء، وعادت بذاكرتها إلى رسالة جدها، وأدركت أنها مخطئة. كان إدي يعلم بشأن الفقرة الإضافية، عندما طلبها للزواج، وأيضاً بانتفاء حق والديها في المنزل؛ فما سبب سخطه؟ ليس لأن والديها تصرفا بفظاظة، فلم يكن من النوع الذي يفسح المجال لشخصين تافهين مثلهما للتأثير عليه.

«لم انزعجت اذن لدى اكتشافك لطباع والدي؟»

ثار وقد حدق بها بقساوة، ثم قال: «لأن الأمر كان فوق طاقتي!» هوى بعدئذ بقبضته فوق الطاولة، مما جعل الإناء يتمايل، وأردف: «لم استطع تحمل فكرة إضطرارك لقضاء أربع وعشرين سنة من عمرك مع عائلة كهذه؛ وأنك مررت بمرحلة مريرة أحجمت عن اطلاعي عليها، ليزي! هلا فهمت؟»

«أنا...» حاولت جاهدة ألا تفهم، لأنها تعلم ما حدث عندما أملت ذات مرة بأن يكترث إدي لأمرها...

«أنا... أردتك تلك الليلة، يا ليزي...» قال وقد طغى التأثر على صوته. تمنيت إسعادك و...» أخذ نفساً عميقاً. «بالنسبة لي كانت ليلة زفاف رمزية... وفكرت أنه بإمكاننا أن نبدأ حياتنا معاً من تلك اللحظة وقد تكشفت الحقائق...» تسارعت أنفاسه وسلط عليها عينيه.

«ولكن في ما بعد، إدي. أنت... تجاهلتني ونحن نتبادل الأحاديث. كنت أشعر بالسعادة ثم... حسناً...» هزت منكبيها بضعف.

«أجل. لم أؤمن يوماً بالقصص الخرافية التي تنتهي بخاتمة سعيدة، وما كنت لأثق بها كثيراً. إتخذ تفكيري هذا المنحى عندما بدأت تشكلين عائقاً لعملي. ظننت أنني تزوجت من مشاكسة واتضح لي لاحقاً أنني تزوجت من معجبة بأدبي، أو على الأقل، هذا ما بدا لي.» طغى على كلماته الأخيرة شيء من الأسى.

تنهدت ثم أبعدت خصلة من شعرها عن وجهها، وقالت: «ظننتك تزوجت من خصم لتحتفظ بالمنزل.»

جلس قبالتها وقد وضع يديه في حضنه والتزم الصمت.

سألته غاضبة: «لم تكترث لرأيي في عملك وأنا مجرد خصم لك؟»

حدق بها بامعان، وقال: «ليزي، عندما زرت المحامية اكتشفت أمر البند الإضافي؛ ولكن لم تقلقني فكرة فقدان المنزل بعد انقضاء الفترة المحددة، وقد فقدت اهتمامي به. كنت أخشى أن يدفعك عنادك الأحمق إلى مغادرة المنزل بعد إطلاعك على حقيقة الأمر. لم يكن جدك وحده من رسم خطة لتطلعي عليها.»

«أوه، إذن لم أكن برأيك أسعى وراء المال.»

أطلق ضحكة مدوية، وقال: «ليزي هولت! لا يعقل أن يكون المال هدف من يملك عربة كتلك التي لديك!

«ولكنك اعتقدت أنني تزوجتك لأجل الشهرة!»

إنتابه بعض الخجل من الملاحظة الأخيرة. «أجل. إتضح

liilas.com/vb3

لي ذلك عندما اتصلت بصالة العرض للسؤال عن انائك، وعلمت بما قلته لأحد التجار المرموقين، وهو أبعد ما يكون عن شخص هدفه الشهرة.»

توقف عن الكلام ثم نظر إليها، وسألها: «لم إذن تزوجتني، يا ليزي؟ وأريد الحقيقة، هذه المرة.»

«لم ابتعت إنائي؟» سألته بثبات.

ران صمت طويل قطعه إذ قال: «سؤالي أولاً. إن أنت أجبت عن سؤالي، فسأجيب بدوري.»

نظرت إليه بجرأة. من يجرؤ ينتصر... وجدت نفسها تفكر ملياً قبل الإجابة.

«لأنني أدركت أهمية المنزل بالنسبة لعملك، الذي هو هام جداً بالنسبة لك... وكان يهمني جداً أن تنال مرادك...»

خفضت بصرها وقد فقدت رباطة جأشها.

«اقترب منها ووقف وراءها واضعاً يديه فوق كتفيها، وقال بحنان: «إبتعت الإناء لأنك قررت الرحيل، وإن فشلت في إسترجاعك، أراك من خلاله. إن لم يكن الإناء بالكمال المطلوب، فانني على استعداد لسحقه لأثبت قولي.»

همست: «ذلك الإناء. كطفلنا، وجوده أمر مهم.»

طالت وقفته ثم قال: «أحبك، يا ليزي بريثويت ربما يسبب لك هذا بعض الضيق، وربما شعورك نحوي مختلف، ولكنني أحبك ولا يسعني إخفاء مشاعري أكثر من ذلك.»

«اسمي هولت.» نكرته، وقد تراقصت شفتها للنغم الذي سرى في أذنيها. «لست منزعجة البتة، لأسباب أترك لك مهمة تكهنها. وأنا أحمل لك هدية من جدي.» قالت هذا ثم وكز بمرفقها في خاصرته.

أمسك بكتفيها ورفعها لتواجهه، ثم قال: «وأنا لدي شيء لك منه أيضاً...» دنا بوجهه منها، وعانقها برقة.

لاحقاً، سألها وقد غمرت أشعة الشمس جسدها البض: «أتحبينني حقاً، يا ليزي؟»

فقالت بمرح: «حباً تعجز الكلمات عن وصفه.»

«رغم أنني أملك ذراعين فرنسيتين؟»

طافت بأنملها على معصمه وقالت: «خاصة لأنك تملك ذراعين فرنسيتين.»

تمت

liilas.com/vb3